فيصل حوراني

الحنين

حكاية عودة



فيصل حوراني

الحنين، حكاية عودة

«شهادة»

رام الله، ٢٠٠٤

سلسلة التاريخ الشفوي، رقم ٣

فيصل حوراني
الحنين، حكاية عودة
(شهادة)
الناشران:


شمل-مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني
ص.ب. ٢٤٥٦-رام الله، فلسطين

مؤسسة الدراسات المقدسية
ص.ب. ٥٤٧٦٩-القدس، فلسطين

يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة فورد

لوحة الغلاف: نبيل عناني
تصميم الغلاف: خالد حوراني
تنفيذ: مؤسسة الأيام للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
رام الله-هاتف ٢٩٨٧٣٤١-٠٢

Fayssal Hourani

Yearning
A Story of Return
(A Testimony)


SHAML-Palestinian Refugee and Diaspora Center
P.O. Box 2456 - Ramallah, Palestine


Institute of Jerusalem Studies
P.O. Box 54769 - Jerusalem, Palestine

Ramallah 2004

This book is published as part of a co-operation agreement with the Ford Foundation.

ISBN 9950-315-03-4

إهداء

إلى ابنتي ليلى

بأمل أن يجيء وقت تتمتع فيه بحق العودة

... فيصل

١

أخرجت من فلسطين وأنا في العاشرة بعد سنة من التطوح على الدروب الممتدة بين المسميّة التي ولدت فيها وغزة التي ألجأتني إليها ظروف ١٩٤٨ . ومنذ ذلك الوقت، عشت في المنفى وكابدت ما يكابده المرغم على الابتعاد عن وطنه وكواني الحنين. غير أن أوجاع الغربة لم تشتد في أي وقت بمقدار ما اشتدت بعد أن لاحت فرصة العودة إلى فلسطين وعاد نفر من أصحابي فعلا وصرت أنا في أحاديثهم صاحبهم الذي بقي في الغربة.

ست وأربعون سنة، بل سبع وأربعون، جسد سابح في فضاء لا أرض

له، وروح هائمة في الضيق كأنها جنّي يتنقل وهو محبوس في قمقم. الذراع جناح. والساق مجداف. والدروب متشعبة. درب يبعدني عن خطر. ودرب يوصلني إلى خطر آخر. ومفاصل العمر ترسمها المرائب ومحطّات القطارات والموانئ والمطارات. والمآوي جميعها مؤقتة ولم أتوقف عن التنقل إلا حين كان يحتجزني قرار حظر السفر من بلد أو يشملني حصار. وعلى كثرة ما تنقلت، لم يكن لي مكان واحد أقيم فيه وهو يخصّني فأشعر نحوه بالولاء، ولم أختبر ظرفا اخترته أنا بإرادتي فأهنأ به. ست وأربعون، بل سبع وأربعون، تبدّلت الأماكن خلالها بأسرع مما تتبدّل الأماكن في الأفلام، وتعاقبت الظروف بأعجل مما تتعاقب في الحكايات. فهل كان غريبا بعد هذا الذي طال أمده أن أضيق بأي مكان حتى وهو أجمل الأمكنة وأيّ ظرف حتى لو كان أدعى الظروف إلى الانشراح!

كنت ما أكاد آلف مكانا وأتعرف على ناسه حتى أجدني مرغما على الابتعاد ومكابدة أوجاع الفراق، فصرت أقتصد في الاستجابة للألفة أو أتجنبها. وما أكثر ما أقمت في أمكنة ثمّ رحلت عنها دون أن يبقى لي منها ما يشدّني إليها. مئات الناس، بل ألوفهم تعرّفت عليهم في بلد أو غيره، وعشرات المحافل، بل مئاتها، والعديد من مقرّات العمل وزملائه، وما لا عدّ له من العلاقات، فماذا بقي لي من هذا كلّه، لم يبق في واقع الأمر إلا ما له صلة بالشأن الذي أنشغل به، الشأن الذي يكاد يكون هو الوحيد الذي يشغلني: الوطن الذي أبعدت عنه وناسه، المكان الذي حُرمت من العودة إليه والناس الذين أتوق إلى الاختلاط بهم.

جُبت عوالم الشرق والغرب، لم تبق جهة لم أزرها. ركبت إبل العرب، وبغال الأتراك، وخيل المغول، وأفيال الهنود. تفرجت على القرود وهي تتقافز بين الأشجار، والأفاعي وهي تتلوّى في سلال الحواة. وشهدت مصارع ثيران وديوك. أنزلت سنّارتي تحت الجليد في نهر موسكو. وتجوّلت في سوق السمك في شاتليه باريس وراقبت بائعاته اللواتي يتحولن في الأماسي إلى بغايا. طفت في المتاحف ومعارض الفنون والمكتبات العظيمة. وقصدت مواقع الآثار في كل مكان يخطر ببالكم. وشاهدت أعظم العروض في أعرق المسارح. واستمعت إلى أمهر العازفين. قابلت شتى أصناف الناس، عوامّ ونابهين، ثواراً ومحافظين، مستقيمين ومنحرفين. وألفت أذناي جرس لغات عديدة. خبرت المدهشات حتّى لم يعد شيء يدهشني. فماذا بقي. لا شيء إلا أن يكون مما له صلة بحكاية حكاياتي كلها. وحكاية حكاياتي هذه تتلخص في حاجتي إلى مكان يخصّني، مكان أشعر نحوه بالولاء، أحس بأن فيه ما يخصني.

الذين قذفوني إلى خارج قريتي المسميّة ثمّ إلى خارج وطني كله وأنا طفل، ظلوا يطاردونني بينما أنا أكبر، شاؤوا أن أبتعد عن الوطن أكثر فأكثر، ظنّوا أنّي سأنسى حاجتي إلى العودة بمقدار ما أبتعد وسأيأس إذا طال الفراق. غير أنّي، أنا المطارد، ظللت أطارد حاجتي، لم أنسَ الوطن، ولم أيأس، ولم أكفّ لحظة عن تنمية الأمل بالعودة. أسكنتُ وطني في روحي، فَرَدتُ له مساحة الرّوح وفيها نمّيتُه كما ينبغي لأي

وطن أن ينمو، وجمّلته. وهل يمكن لوطن الروح إلا أن يكون دائم النموّ وجميلاً. ونقلت وطني معي كلما انتقلت. لم أعش في الغربة دون رفيق، فقد ظل المتوطّن في روحي هو رفيقي الدّائم. ولأنّ من أقصاني عن وطني قد أقصى وطني ذاته عن وطنه، فقد عشنا معاً، غريب ووطنه الغريب. في الغربة، عشت مع الوطن؛ اللاجئ يعيش مع وطنه مادام محروماً من العيش فيه.

لن أروي لكم حكايتي في المنفى، فقد رويت جلها في ما كتبت، وما تجهلونه منها مماثل لما تعرفونه من غيرها يكاد لا يزيد عنه ولا ينقص، وأنا لست من هواة التكرار. ولن أزيد أثقالكم بالحديث عن الآلام التي كابدتها منذ فاجأني اتفاق قيادة منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل، هذا الذي اشتهر باسم اتفاق أوسلو. ولعلّ بينكم من يعلمون أني عارضت هذا الاتفاق. وأنا لم أعارضه لأني ضد الاتفاق مع العدو إذا وفر الاتفاق أسساً لحلٍّ عادل ومستقرّ، فقد ثابرت منذ احترفت الكتابة على الدّعوة إلى مثل هذا الحلّ، حتى حين كان معظم الفلسطينين ضد أي حلّ. بل عارضت لأني لم أجد في اتفاق أوسلو ما يوفر أسس العدل أو الاستقرار. امتص الاتفاق كل قطرة في ضرع القيادة الفلسطينية، وكبّل هذه القيادة بحزَم من القيود، وأوجب عليها أن تلغي سلاح الانتفاضة، ولم يقدّم لها مقابل هذا غير وعود غامضة، قبض ريح لا يملأ أي يد. فهل كان بإمكاني، أنا الذي احترف الدعوة إلى حل تستقر به الأحوال، إلا أن أعارض الاتفاق الذي رأيت أنه يبعد المنهمكين في الصراع عن مثل هذا الحلّ.

و لكم أن تعرفوا أني لم أجهر بمعارضتي فور إعلان الاتفاق، لم أنشر رأيي، بل قلت لنفسي: تقدم بك العمر، والذين يطلعون على رأيك قد يتأثرون به، وهذه خطوة ليست مثل أي خطوة سابقة، فالاتفاق يؤثر على مصير الشعب الفلسطيني لأجيال عدّة وأنت من هذا الشعب، فلا يجوز أن تصدر حكمك بخفـّة، لا يجوز أن تحكم على الاتفاق بتأثير الانطباع العاجل، ولا يجوز خصوصا أن تنشر رأيك قبل أن تحصّنه بالبراهين وتتيقـّن من صوابه.

منذ نشر الاتفاق، قرأته، وكرّرت قراءته. لم أثق بالترجمة، فقرأت النصّ المعتمد، هذا المكتوب بالإنجليزية، واستعنت بمن هم اخبر منّي في اجتلاء دلالات النصوص. وتابعت الأنباء والتعليقات. وتقصّيت وجهة نظر المؤيدين والمعارضين. والتقيت من أعرفهم ممن فاوضوا الإسرائيليين، الذين فاوضوا على مسار مدريد العلني في ظل الرعاية الدولية له والذين فاوضوا على المسار السرّي الثنائي في أوسلو، هذا الذي لم يُقِرّ أي طرف دولي بأنه رعاه. ولمّا كان كثيرون ممن فاوضوا هم من أصحابي، فما أيسر ما استقصيت التفاصيل وتفاصيل كل تفصيل!

وفي سياق الاستقصاء، ظفرت بخلوة مع ياسر عرفات، القائد الذي تعدّدت ألقابه فلم أعد أدري أيّها أكثر ملاءمة له، الذي امتدت مسؤوليته فاستحوذت على مسؤولية أي مسؤول غيره ولم يعد بمقدور أيّما أحد أن يعرف حدودها أو يوقفها عند حدّ. بدأ الرجل الذي أكرمني بتخصيص

خلوةٍ يستمع فيها إلى رأيي سعيداً بالاتفاق. فهل كان هذا تظاهراً أملته حاجة القائد إلى اجتذاب الآخرين لتأييده إزاء المعارضة الواسعة؟ ربما كان الأمر كذلك، وربما كان الرجل سعيداً حقاً بالفرصة التي رأى أنها انفتحت. وقد تأنّى الرجل في الاستماع كما تأنّى في الشرح مخالفاً عادته، هو الذي يتولّى أموراً عدّة في وقت واحد فلا يجد وقتاً كافياً لأيّ منها.

في هذه الخلوة، وإزاء ما ظهر من عدم اقتناعي، لم يبسط أبو عمّار الآمال التي يعوّل عليها، هذه التي صرتم تحفظونها عن ظهر قلب لكثرة ما ردّدها، بل كشف هواجسه أيضاً وبسط رؤيته لأبعاد المجازفة التي رأى أنه مقدم عليها وهو يعي أخطارها. قال عرفات إنّ عدوّنا مخاتل فلماذا لا نأخذه بختله، قال إنه اغتصب أرضنا قطعةً قطعة فلماذا لا نستعيدها بالأسلوب ذاته، وحقوقنا، قال عرفات، ما الذي يضرّ إن استعدناها حقاً بعد حق. غزّة وأريحا أولاً، كما هو عنوان الاتفاق الذي يلخص مضمونه، هذا قليل حقاً، أقرّ عرفات، لكن كلّ إضافة إليه ستنمّيه، استدرك، وابتسم لأفهم ما يضمره، ثم قال: «جنحوا للسلم فما الذي يمنع أن نستجيب، هم مخادعون؟ فمن الذي قال إننا سننحّي الحذر، ألا تعرف أني سيد الحذرين».

لم يكن الرجل الذي لا تبارحه الهواجس حتى إزاء أبسط الأمور بحاجة إلى تذكيري بهذه السمة التي هي من أخصّ سماته، فأنا أعرف كم هو

تغوي الواثق بقدراته. أمّا ما أحجمت عن ذكره أمامه فكان معرفتي أنّ ياسر عرفات معتدّ بنفسه في هذا المجال، خصوصاً هذا المجال، واعتداده بنفسه هذا يشجعه على المجازفة. والواقع أني لو أجزت لنفسي أن أبتسر الصراع مع الصهيونية فأعدّه مبارزة يفوز فيها الأذكياء لربما أقنعني كلام القائد الذي بدا حريصاً على إقناعي. غير أن الأمر ليس هو هذا، إنكم تعرفون ما هو الأمر، وللذكاء دور دون شك لكنه ليس الدور الحاسم، والركون إلى الذكاء يتحول إلى فخّ يوقع بصاحبه حين يهمل الذكيُّ حساب القوى أو يخطئ الحساب. ومن الذي لا يعرف أن غلطة الشاطر قد تصير أخطر الغلطات!

بسطت رأيي. واستعنت بما يعرفه عرفات فاستحضرت تجارب الذين بدّدوا الوقت والقوى في المجازفة وأخطأوا الحساب، حجوم القوى وطبائعها، العدو المسلح بالقدرات وبضمنها ذكاؤه المشهود به، الوضع الإقليمي، الوضع الدولي، وما إلى ذلك مما يُستحضر في هذا المجال. وخلصتُ إلى القول بأنّ المجازفة غير مضمونة العواقب هذه المرّة ومن الخطأ أن يقدم الفلسطينيون على ما قد يؤدّي إلى هلاكهم.

لم يوافقني القائد الذي كان قد شرع لتوّه في مغامرة يراها جليلة، لكنّه لم يظهر أي ضيق بمعارضتي. ولم أوافق أنا القائد الذي يستطيب الإقدام على المجازفة في حدّ ذاته، لكنّي أدركت أن ليس من الممكن ثنيه عن ما شرع فيه. ومن أنا حتى أتمكن من إقناع عرفات بالتوقف! وقد ينبغي أن أقرّ بأن ما أظهره أبو عمّار من سعة صدر وهو يستمع إليّ قد خلّف في

نفسي أثراً طيباً، بل لأقل إنّه أسرني. والحقيقة أن أسر القائد إيّاي استحكم حين أقرّ هو بحقي في أن أعارض سياسته وتأثيره عليّ بلغ ذروته حين قال: «احتفظ برأيك، بل انشره إن شئت، ولنتحاسب بعد ذلك في ضوء النتائج!». ومن الذي لا يأسره أن يضعه رجل له مكانة ياسر عرفات في موضع الندّ!.

لقد بدا عرفات واثقاً من أنه سيفلح. ولأن تسامح الرجل الكبير إزاء تشدّدي في الاعتراض أحرجني، فقد وجدتني أقول إني سأعارض، لكنّي لن أنشر رأيي قبل أن أتيقّن من صوابه، ولن أهاجمه هو شخصياً في أي حال. وبدا لي أن الرجل الذي استمع وهو يبتسم أسعده ما قلته. وعند هذه النقطة، انتهت الخلوة، وانضمّ آخرون إلى المجلس. وفي حضور هؤلاء، حيث كررت بعض آرائي بشأن الاتفاق، سألني أبو عمّار بنبرة وديّة: «ألن تذهب معي، إذن، إلى غزّة أنت الذي يعترض على اتفاق يعيدنا إليها؟». فقلت، وقد أدركت أن حجة القائد هذه هي سيدة حججه، إن غزة جزء من الوطن، وقد عشت فيها سنة بعد إقصائنا عن المسمية، ولي فيها ذكريات طفولة، وفيها أمي وإخوتي وعدد كبير من أقربائي، وقد انضمت إليهم مؤخراً ابنتي لَمى وزوجها عَديّ، وأنا مستعد لأن أرجع إليها في أي ظرف، إن كانت السلطة فيها للمحتلّ أو كانت لنا.

والواقع أني عنيت ما قلته حين تحدّثت عن رغبتي في العودة إلى الوطن أيا ما كانت عليه الظروف. وفي فيينا التي أعتزل فيها منذ سنوات متفرغاً

للكتابة، تابعت مسألة عودتي هذه، وتابعها أصحاب لي كثيرون، بمبادرة منهم أو بناء على طلبي. وقد عاد أبو عمّار ومرافقوه، عاد فوج، تلاه فوج، تلتهما أفواج. وكاد العدد الذي أتاح الاتفاق عودته يُستوفى فتنسدّ الطريق. عاد ألوف بينهم أصحابي المهتمون بعودتي وأنا أنتظر. وقد انتظرت شهراً وشهوراً، وانقضت سنة ومضت شهور من السنة التي تلتها وأنا ما أزال أنتظر. أما لماذا طال انتظاري فلهذا قصة وإليكم بيانها.

فقد إنداحت نتائج الاتفاق التي تعرفونها، إنداحت بأسرع مما توقع أيّما أحد. واتضح حتى للذين أعماهم إفراطهم في التفاؤل أن ختل العدو المسلح بتفوقه المادي هو الذي يرسم هذه النتائج. حصلت إسرائيل على ما توخته من الاتفاق ولم تف بما التزمته، وقصّر نهج القيادة الفلسطينية، هذا الذي سمّيته أنا نهج استرضاء العدوّ، عن إلزامها. أفرطت القيادة الفلسطينية في التنازل فظل لسان حال إسرائيل يصرخ: هل من مزيد! أن تنحّي وسائل الضغط على الظالم ثم تطالبه بأن ينصفك يساوي أن تدرج نفسك بنفسك في البلهاء. وفي هذه الأثناء، أخرج مستنقع الفساد الفلسطيني ديدانه وقد انفتح أمامها مجال جديد تلعق فيه ما تقع عليه، دون رقيب أو حسيب. وتنمّر الفاسدون على شعبهم، فالفساد يستولد القمع، فيما هم أنفسهم يمعنون في التطامن إزاء العدو. استرضاء العدو واستفزاز الجمهور، وجها العملة التي يتداولها الفاسدون.

ولكم أن تعرفوا أنّ ما أوجع روحي ليس هو سلوك إسرائيل. فقد ألفت أن أرى في الصراع مع إسرائيل قضية عامة، قضية كفاح ضد الظلم ينعش الإنهماك فيه الرّوح وينمّي أجود ما فيها. ألا ينعش الكفاح من أجل

العدالة أيّ روح. ولطالما أمتعني الانهماك في المعامع وجدّد ألق روحي! أمّا ما أوجع الروح فهو سلوك ناس السلطة الفلسطينية، ناس القيادة وناس الحلقات التي تحفّ بالقيادة أو تتمتع بحمايتها، خصوصاً سلوك أصحابي من هؤلاء وهؤلاء. ما فعله العدوّ بعد الاتفاق ظلّ من طينة ما كان يفعله قبله، مائة سنة قبله. لم تطو إسرائيل راية الظلم وتحلّ محلها أي راية أخرى. ولم يفاجئني أن تفسّر إسرائيل بنود الاتفاق بما يوائم مصالحها وتتعسف في التفسير لتستحوذ على ما هو مشروع وما هو غير مشروع أيضاً من المكاسب. ولم يفاجئني أن تمعن إسرائيل في نهجها المألوف، فتفرط في استخدام سلاحها المتفوق، وتكبل السلطة الفلسطينية التي أنشأها الاتفاق بألف قيد وتبتزها في كل لحظة. أما ناس السلطة الفلسطينية فهم الذين استبدلوا سلوكاً بسلوك وراية براية، هم الذين استبعدوا الضغط الماديّ وأفرطوا في اللين واشتدّ هوسهم في إظهار التسامح، وهم الذين طووا راية الثوّار واستكانوا في الفخّ الذي حشروا فيه ورفعوا حتى داخل الفخّ راية الحكّام. وهذا هو ما أوجع روحي.

ألم تشهدوا بأم أعينكم كيف أمعنت السلطة في استرضاء العدوّ كلّما أمعن العدوّ في التضييق عليها والفتك بكرامة شعبها وحرياته وأرزاقه وكيف استشرى في غضون ذلك الفساد. هل كانت هذه سذاجة، أو سوء تقدير، أو رضىً بالفتات الذي يسّر العدو لقليلين الظفر به حتّى يستعين بهم على الكثيرين. ولماذا استمرّ تمسّك القيادة الفلسطينية بالرهان حتى بعد أن ظهر خطله، لماذا استمرأ المجازفون الإمعان في المجازفة حتّى بعد أن انسدّت سبل النجاة. وما الذي جناه الجمهور حين أمعنت قيادته في

ترويج الأوهام. وإذا كان هذا كلّه مما يمكن أن يقع فيه أي طالب تسوية حين يخطئ الحساب، فما الذي يبرر تنمّر السلطة على ناسها فيما هي مستكينة أمام العدوّ.

ضاق تصبّري بما خزنته، فأذنت لمخزوني بأن يفيض. تعذر علي الاستمرار في الصمت فأذنت للساني بأن ينطلق. ولما لم يكن من الجائز أن أنتقد القيادة وأغفل المسؤول الأول صاحب القرار، فما أشدّ ما قسوت في انتقاد ياسر عرفات!

لم يجيء إذنُ العودة إلى الوطن، ولم أتلق جواباً على رجاءاتي المتكررة حين ألححت على تعجيل استصداره. وفي البداية لم أربط بين حجب هذا الإذن وبين أي رد فعل مفترض على ما أكتبه، ذلك أني ألفت احترام الجميع حريّة التعبير في السّاحة الفلسطينية. غير أن شيئا ما وقع فأرغمني على الانتباه إلى أنّي معاقب وأن حجب الإذن جزء من هذه العقوبة.

هذا الشيء له حكاية بدأت منذ ابتدأت المفاوضات السرّية في أوسلو. فقد أوقفت القيادة صرف رواتب معظم العاملين في مؤسسات م.ت.ف. وقيل إن السبب هو شحّ الموارد الماليّة. واستمرّ الوقف شهوراً عانى خلالها الذين انقطعت مواردهم متاعب ومهانات لا حصر لها. ومنذ تسرّب أول الأنباء غير الرسمية عن وجود مفاوضات، استخلص ذوو الفطنة أن القيادة تعمّدت وقف الصرف مؤملة في أن تتضاعف الحاجة إلى مورد فيقبل العاملون في صفوف م.ت.ف. نتائج المفاوضات إذا

استؤنف صرف الرواتب. والذي حصل بالفعل أن الصرف استؤنف بعد إعلان الاتفاق، استؤنف بتقنين بدا أنه مدروس ليفي بالغرض، يلبّي بعض الحاجة ويبقى القلق من احتمال وقف الصرف من جديد. وتوقعت، بالطبع، أن يجيئني راتبي أنا الآخر أسوةً بالآخرين. غير أن أملي لم يتحقق. ومضى شهر ثم شهور إلى أن تيقنت من أني معاقب على ما أكتب والعقوبة تشمل وقف الراتب أيضاً، وهو الراتب الذي لا مورد لي سواه، أنا المتفرّغ للكتابة بقرار حمل توقيع رئيس اللجنة التنفيذيّة ياسر عرفات، منذ ١٩٨٩.

لقد احتججت بالطبع. ولكن الرجل الذي انضاف إلى ألقابه لقب رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية رفض حتّى أن يتسلّم رسائل الاحتجاج التي أرسلتها إليه، وعنّف كل من حمل إليه رسالة مني شفهية أو مكتوبة وكل من شاء التدّخل لصالحي. صدّ أبو عمّار سعاة الخير، وما كان أكثرهم، وأسكت كل من حاول أن يذكّره بحاجتي، أنا الذي يعيش في فيينا بغير مورد، أو حتى بمكانتي عنده، أنا الذي طالما أظهر هو في السابق أنه يعزّني.

كانت تلك هي، إذن، عقوبة حجب لقمة العيش ونبذ العائش في الغربة ورميه إلى المهانات. أطع ترزق، قل ما يلائمنا لتُطعَم أو نسدّ فمك، اتبع مالِكَ لقمة عيشك أو ابقَ جائعاً إن استطعت أن تصبر على الجوع! إنّه السلاح الذي استخدمه الطغاة في كل عصر، صغيرهم وكبيرهم، وهو السلاح الذي طالما فاخر ياسر عرفات قبل الاتفاق بأنه لا يستخدمه.

تردى الحال، إذن. حشر قادة ثورة التحرير أجسادهم في زيّ الحكام قبل أن يستقل الوطن أو يجلو المحتل عنه وقلّدوا من الحكّام أشدّهم ضيقاً بالنقد وأقساهم يداً على الجمهور. السجون التي احتبس فيها الاحتلال الإسرائيلي المناضلين من أجل الحرية استخدمتها، هي ذاتَها السلطةُ الوطنية، وكثيراً ما احتبست فيها معتقلين كان الاحتلال قد اعتقلهم هم أنفسهم. الأفواه التي عجز المحتل عن سدّها، والعزائم التي فشل في ليّها، والإرادات التي عجز عن قهرها، هذه كلها تولى ناس السلطة معالجتها بدعوى الحاجة إلى إعطاء الاتفاق فرصة والكفّ عن استفزاز العدوّ حتى لا يتنصل منه. ولئن لم تصُبَّ السلطة الوطنية على الجمهور الحجم ذاته من القمع الذي صبّته سلطة الاحتلال، فمرد هذا إلى اختلاف الظروف والتفاوت في حجوم القوّة والقدرة. لكن طبيعة القمع تظلّ هي هي لا يبدّلها تبدّل الرايات. القمع هو القمع، والفساد، وكل ما تعرفونه. وعلى ضآلة حجم القمع الذي مارسته السلطة حين يُقارن بما فعله المحتلّ، فقد بدا القمع الوطنيّ هو الأوجع، أليس صحيحا أن ظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة من ظلم الغرباء!

ولقد وُضع الناس أمام معادلة بدا كأن لا فكاك منها. إن عارض الناس سياسة السلطة وسلوكها، قال قادة السلطة إنهم ثوار تحرير وفي ثورات التحرير يتحد الجميع. وإن طالب النّاس القادة بأن يسلكوا سلوك الثوار، قال هؤلاء إنهم حكّام وللحكم حاجاته. ووقع الناس في حيرة؛ إن قاوموا السلطة فإنهم يضعفونها فيستفيد العدوّ الذي يريدها ضعيفة لتزيد

سطوته عليها وعليهم ويتمكن من ابتزازها وابتزازهم، وإن استكانوا إزاء سلبيات سلطتهم فإن استكانتهم تشجّعُ القامعين والفاسدين، وفي هذا خدمة للعدو، وأي خدمة، خدمة مضاعفة!

و في مراقبتي للحال الآخذ في التردّي، رأيت أن الوقت قد يطول قبل أن ينعتق النّاس من أسر هذه المعادلة البغيضة. ولم أقتنع بأن السكوت جائز بسبب هذا. لم أر حكاماً حرّروا البلاد وانصرفوا إلى بناء مؤسسات الحكم الوطني المستقل فأقدّر حاجتهم إلى المساندة وأغضّ النظر عن أخطائهم. ولم أر ثوار تحرير فأغضّ النظر عن سلبياتهم. ولم أقع على ما يلزمني حبس سخطي. ولماذا أحبس السخط، ولماذا يحبس سخطه أيّما أحد حين يكون هو واحداً من المكتوين بالنار.

و فيما أنا منهمك في الحملة على القيادة ورئيسها، واصلت السعي كي أظفر بإذن العودة إلى الوطن. وصرت بحاجة إلى أن أمكث في مكان قريب يوفر لي فرص الاتصال بناسي الذين أندبهم للمساعدة. ولكنّي كنت ممنوعاً من الدخول إلى كلّ من مصر والأردن، أقرب بلدين إلى غزّة وأريحا حيث نشأت السلطة. ولما تعذر أن أجد وسيلة تيسر لي دخول مصر، فلم يبق غير الأردن. وكان طريقي إلى هذا البلد، أنا الذي حظر علي دخوله منذ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، قد انفتح جزئياً في العام ١٩٩١، فتحته مبادرة طيبة من الدكتور أسعد عبد الرحمن، صديقي الذي صار المدير العام لمؤسسة شومان الثقافية في عمّان. فقد ندبني أسعد لإلقاء محاضرة في موسم المحاضرات الذي تنظّمه المؤسسة وظفر بإذن يبيح لي دخول الأردن لمرة واحدة استثناء من حظر الدخول. ولأن نجاح المحاضرة

وسعادتي بالزيارة حفزا أسعد على توفير فرصة أخرى، فقد تكررت دعوتي لإلقاء محاضرات. وبهذا تيّسر لي أن أجدد صِلاتي بأقربائي وأصدقائي في البلد الذي يقيم فيه جلّ الأقرباء وعدد كبير من الأصدقاء. وعندما اشتدّت حاجتي إلى إطالة المكوث في عمان، سعى أسعد إلى توفير حق الإقامة الدائم لي في البلد، غير أن جهده لم يفلح في زحزحة الحظر. أما ما وفر لي هذا الحق في نهاية المطاف فكان جهد رجل لن أنسى فضله علي هو حاكم الفايز الذي تخطّى محظورات كثيرة يفرضها هو على نفسه واستخدم مكانته كي يتوسط لي فمكنني من الظفر بحق الإقامة، فتوفر لي أن أجيء إلى البلد متى أشاء وأمكث فيه كما أريد.

وبتوفر هذه الفرصة، وبوجود صديق العمر الدكتور منير الحمارنة الذي يستضيفني في منزله، تسنى لي أن ألتقي من أحتاج الإلتقاء بهم من القادمين من الأرض الفلسطينية. وما أكثر الذين التقيت بهم، وما أكثر الذين حاولوا من هؤلاء أن يعود إليّ راتبي وأظفر بإذن العودة إلى الوطن دون أن يفلحوا!

في هذا النحو، انقضى ما بقي من العام ١٩٩٣ بعد التوصل إلى اتفاق أوسلو والعام ١٩٩٤ الذي عاد عرفات في أوله إلى الوطن ومعظم العام ١٩٩٥. وبقيت أسير مضاضة مضاعفة: الافتقار إلى مورد والافتقار إلى إذن العودة.

وها أنا ذا أتذكر واحداً من أصحابي جاء إلى عمان فيما أنا أبحث عن حل لمشكلتي فندب نفسه لحلها. سأعطي لهذا الصاحب اسماً غير اسمه،

هو الذي تعدّدت على أي حال الأسماء التي عرف بها، سأسميه عائد، وسأبدأ بأن أنقل إليكم ما ابتدرني به فور لقائي إيّاه: «الجم لسانك ودع الباقي عليّ، أضمن لك استئناف دفع رواتبك والعودة!».

سمعت النصيحة القبيحة فأدركت كم تبدّل عائد منذ عاد وكم تطامن. وقد باح عائد الذي كان يشغل منصباً يضعه في السلطة قريباً من رئيسها بما يعرفه من شأني عند الرئيس. فعرفات، هذا الذي سماه عائد حتى أمامي أنا سيادة الرئيس، ساخط علي لأنّه لم يتوقع أن أخذله أنا الذي طالما وقفت في صفّه في أصعب المواقف، وهو يتهمني بأنّي خالفت عهداً قطعته على نفسي أمامه بأن أصمت فلا أهاجمه. لم يكرر عائد، إذن، الترهات التي روّجها غيره، لم يزعم أن فوضى البيروقراطية هي التي أوقفت صرف راتبي، لم يدّع أن السلطة طلبت لي إذن العودة وأن إسرائيل هي التي لم ترد على الطلب حتى الآن، بل واجهني بالحقيقة: سيقتنع سيادة الرئيس بالإفراج عن رواتبي إن أظهرت ما يتوقّعه مني أنا الكاتب الذي لم يخذل قيادة شعبه الوطنية ولم تقصّر هذه القيادة في إكرامه. واستحضر عائد حقيقة أن سيادة الرئيس هو الذي يسّر لي الحصول على حق التفرغ للكتابة فليس من العدل أن أجنّد قلمي للهجوم عليه. وأكد عائد أن أشد ما يسخط الرئيس هو استهدافي إيّاه شخصيا بالنّقد. وكرّر عائد ما بدأ به: «الجم لسانك قبل أن تأمل بأي حل!».

كان بقائي بلا مورد طيلة ما كاد يبلغ سنتين ونصف سنة قد عرّضني لمهانات يخجلني أن أبوح بها. ولو لم تستمر زوجتي في العمل، هي التي استحقّت التقاعد فأرجأت الظفر به، لربما تعرّضنا هي وأنا إلى ما

يصعب تصوّره. وكانت أمي التي بقيت في غزة منذ لجأنا إليها في العام ١٩٤٨ قد توقعت أن أعود إليها مع أوائل العائدين. بل إن أمي، مثلها مثل أي أم تبالغ في تصوّرها لمكانة إبنها، توقعت أن أدخل غزّة في موكب ياسر عرفات وأكون إلى جانبه عندما احتشد الجمهور لاستقبال زعيمه القادم من المنفى. أكلّم الأم المشتاقة فيكون أول ما أسمعه على الهاتف »متى أراك؟«. أمنّي أمي المتلهفة إلى لقائي بقرب اللقاء فتقول: »أخشى أن أموت قبل أن ألقاك«. وأصحابي الذين عادوا، الأصحاب الذين ألفتهم في المنافي وشهدت معهم معامع الثورة وخبرت وإياهم الحلوة والمرة، أصحابي هؤلاء راحوا يترقبون عودتي ولا يكفون عن حثّي على تليين موقفي كي أعود، يقول واحدهم على الهاتف ما يقوله من ألقاه منهم في عمان إن بعض التنازل لا يضرّ خصوصاً إن كانت العودة إلى الوطن هي المكافأة، يرددون هذا ويستحضرون ما كنت أنا نفسي أردده على مسامعهم: النضال من الداخل أجدى، ويضيفون: انتقل مركز الثقل من المنفى إلى الوطن، فلماذا المكابرة.

كان عائد مدفوعاً برغبته في مساعدتي حين طلب مني أن ألجم لساني، إلا أن مطالبته إيّاي بالتنازل الذي لا أقدر عليه أحنقتني. ألا يُحنق الكاتبَ أن يُطالب بالكفّ عن بثّ أفكاره، وبأي شيء يختلف كتم الرأي عن ترويج الآراء الزائفة.

- لن يرجعوني إليك يا أمي.

كنّا في صيف ١٩٩٥، آخر هذا الصّيف، وكان هذا هو ما قلته لأمّي على الهاتف بعد أن فارقت عائد محنقاً. ولم تغالب أمي هذه المرة أساها.
- رباح هنا، وأنت هناك، تريدان أن تقيما الدين في مالطا بعد أن فسق الجميع، أصحابكما يخزنون المال ولهم الجاه، وأنتما تعاندان، فيتعب الخوف على رباح قلبي ويفري الشوق إليك كبدي.

ورباح الذي ماثلت أمي بينه وبيني في العناد هو رباح مهنّا، أخي منها، واحد من أخوين ولدتهما أمي لزوجها الذي تزوجها بعد رحيل أبي. وكان رباح مثلي منهمكاً في العمل العام، كما كان، مثلي، معدوداً في المتزمتين حين يتعلق الأمر بدواعي الطهارة الشخصية. أما موقف رباح السياسي فقد اختلف عن موقفي، فهو واحد من زعماء الرفض ومعارضته لاتفاق أوسلو ناجمة من معارضته كلّ تسوية مع إسرائيل، في حين نجمت معارضتي أنا من خشيتي أن لا يفضي الاتفاق إلى أيّ تسوية وأن يبدد فرص عقد تسوية معقولة.

أوجعني أن يبلغ أسى أمي حدّ التعريض بموقف ابنيها. ولكي تدركوا لماذا أوجعني أن تقول
أمي ما قد تقوله أيُّ أم، فلكم أن تعرفوا أني ما كلمت أمي مرة قبل هذه المرّة إلا شجعتني على الثبات. وما أكثر ما كانت أمي تتفاخر برباح وبي، أمي ذات الجَلد، أمي التي لم تهن أبداً، فكيف لا يوجعني أساها!

أما لَمَى، كبرى بناتي الثلاث التي انتقلت هي وزوجها عَديّ منذ بعض

الوقت إلى غزّة فهي لا تحتني بلسانها على شيء، لكن حنيني إليها، هي التي سعدت بالإقامة في وطنها بعد طول التطوح في أوطان الآخرين، كان يحتني. ولئن لم تقل لي شيئاً لأنها ألفت أن تتجنب الضغط عليّ، فما كان أقوى ما بثه صمتها، وما كان أوجع أن أظل عاجزاً عن تلبية توقها إلى أن تلتقي بأبيها على أرض الوطن!

حملت وجعي وقصدت أسعد عبد الرحمن. ولعلها المرة الأولى التي سمعني فيها أسعد وأنا أتوجّع. وبعد أيام قليلة، وقد صرت أنا في فيينا، جاءني صوت هذا الصديق على الهاتف وكلماته الوجيزة؛ إنه ذاهب إلى غزة ليلتقي ياسر عرفات، وهو بصدد عقد صفقة معه وبودّه أن يضع مشكلتي في مقّدمة البنود. «لا يشغلني شيء بأكثر مما تشغلني مشكلتك»، قال أسعد هذا، وسأل عما إذا كان لديّ أيّ شروط.

جاء هذا العرض فيما كانت نفسي تراودني على أن أتخذ أنا المبادرة وأتصل بعرفات وأطلب المصالحة. تضافر ضغط الحاجة مع أسى أمي وأشواق لي وإلحاح أصحابي وتأثير قناعاتي وكل شيء من هذا القبيل، فجعلني طالب مصالحة. وبالرغم من تشدّد عرفات في رفض أي وساطة بشأني، فقد أدركت أن وقت حلّ المشكلة قد حان. فالرجل الذي اتبع رهانا لم يتحمس له من المثقفين النزهاء إلا قليلون وجد نفسه محاطا بحشود المتملقين ومستثمري علاقاتهم به لتوسيع مفاسدهم والذين هم من هذا القبيل، واشتدت عزلته عن الآخرين، ولا شك في أنه تائق إلى الموازنة بين هؤلاء وهؤلاء. والواضح أن أسعد الذي لم يُفتن بأوسلو لكنّه لم يساهم في الهجوم على عرفات قد استخلص ما استخلصته وعزم على

أن يجد لنفسه دوراً في مركز الصورة الذي انتقل إلى الوطن .

- لي شرط وحيد هو على كل حال شرط إجرائي أعلم أنه سيستجيب له إن كان راغباً في حل المشكلة .

وأغلب ظني أن أسعد توقع أن يسمع شرطاً جليلاً ، ولهذا فإنه فوجئ حين لم أشترط إلا أن أظفر بخلوة مع عرفات لا يقاطعنا خلالها أحد ولا ينصرف هو إلى مشكلة أخرى ، عشرين دقيقة ، ليس أكثر ، لكن ليس أقل .

قد يفاجئكم أنتم الآخرين أن أضع هذا الطلب البسيط بمثابة شرط ، أنا الذي لم أضع أيّ شروط أخرى . فاعرفوا ، إذن ، ما عرفته مما آل إليه أمر ياسر عرفات بعد أن عاد إلى الوطن . فهذا الرجل هو رجل الاستحواذ على أي صلاحية ، وقد اتسم تاريخه كله منذ كان رئيساً لرابطة طلاب فلسطين في القاهرة بسعيه الحثيث إلى تكديس الألقاب والاستحواذ على كل صلاحية متاحة . وبعد أوسلو . بعد العودة إلى الوطن ، حين ضاقت حلقة منافسيه وزاد عدد المتطامنين أمام استحواذه على صلاحياتهم ، صار ياسر عرفات هو المستحوذ الوحيد على كل صلاحية . ولم يعد من الممكن قضاء حاجة لمواطن أو تصريف أمر إلا بموافقة عرفات وتوقيعه . استوى في هذا أن تكون الحاجة معالجة مرض امرأة فقيرة أو بناء ميناء وأن يكون الأمر أمر شراء تذكرة سفر لموظف مغادر في مهمة أو تشكيل الوفد الذي سيمثل فلسطين في أعلى القمم . وكان عرفات كثير الأسفار ، فصار وقته

حين يستقر في مكتبه، وقته القصير في واقع الأمر، مثقلاً باجتماعات الهيئات القيادية والمجالس العليا العديدة واللجان متعددة الأغراض التي هو رئيسها جميعهاً. وكان على الرجل أن يقرأ ألوف الأوراق التي ترد إلى مكتبه أو تسلم إليه باليد كل يوم من طلاب قضاء الحاجات الخاصة والعامة الذين لا يتوجهون إلا إليه، كما كان عليه أن يستقبل عشرات الوفود والزوار. وانتهى الأمر إلى أن صار المطالب بالبتّ في كل طلب يقرأ الأوراق المكومة أمامه فيما هو يرأس اجتماعاً أو يستقبل وفداً أو زائراً. وصار عرفات يوزع انتباهه بين الجالسين أمامه وشؤونهم وبين الأوراق، ويواصل القراءة والتوقيع فيما هو يتحدّث أو يستمع. وقد ألف رواد مكتب عرفات الفلسطينيون جميعهم، جميعهم بغير استثناء، هذه الاستهانة السافرة بهم أو بالهيئات أو بالوفود التي هم أعضاء فيها. وبوضعي شرطي، شئت أن يعرف من أتوجه إليه من أجل المصالحة أني أطلب أن أحظى بانتباهه كاملاً واحترامه ولا أرضى بأن يُستهان بي.

- اركب أوّلَ طائرة وتعال إلي في عمان!

في لقائه مع عرفات، قال أسعد للقائد الذي استقبله بترحاب إنه راغب في أن يكلمه بشأن شخص يعرف أنه، هو عرفات، يحبه ويقدّره ولا يريد له إلا الخير. كان هذا هو أسلوب أسعد. وبهذا الأسلوب، هيأ صديقي القائدَ الساخط عليّ ليتلقى شكواي وطلبي.

- استجاب دون ممانعة وامتدحك، إنه يعزّك فعلا.

وقد حمل لي أسعد الذي لم يفته ذكر ضائقتي المالية ثلاثة آلاف دولار

دفعةً على حساب رصيد رواتبي الموقوفة وإذن زيارة منحته لي السلطات الإسرائيلية بناء على دعوة لزيارة غزة موجهة إلي من مكتب الرئيس، وهو إذن يبيح لي أن أبقى في غزة زائراً لمدّة شهر. وقال أسعد غير متستر على سعادته بما تمّ إنجازه: «سيستقبلك، خلوة، كما طلبت».

جزء من رصيد رواتبي وليس الرصيد كله وإذن زيارة وليس إذن عودة، إلا أن هذا الفارق لم يوهن عزمي على حلّ المشكلة. ولم أُضِع الوقت في مراسلات جديدة. إنها خطوة في مقابل ما تصور القائد أنها خطوة منّي. ليكن! حسوب هو هذا الذي أعرفه معرفة تامة، بلٍ بارع في الحساب كلما تعلق الأمر بمجافاة الآخرين أو اجتذابهم. حلٌ مشكلتي المالية كلّها قد يعزّز عنادي الذي رأى هو أنه بدأ ينحل. وإذن الإقامة يبقيني في الوطن حتى لو لم يشأ هو أن أبقى. مبلغ يمكنني من الوصول إليه، وإذن يبقي موضوع إقامتي في يده. ولأقرّ: إني أقدر ذكاء الأذكياء!

- أنا في الطريق إليك يا أمي.
- تَعِدُني ثمّ لا تجيء.
- أقول لك هذه المرّة إني على الطّريق. أنا قادم إليك غداً من كلّ بدّ.

لا بدّ من أن نبرة الصوت الجازمة حملت إلى الأم المتشككة ما طمأنها.

- أنت متأخر في كل حال. الذين سبقوك لم يبقوا لك منصباً تشغله أو شيئاً تسرقه.

أوجزت التي راق مزاجها وصف الحال بهذه السخرية اللاذعة. فجاء الوصف الوجيز أدلّ على الحال من أي وصف. وما أشدّ اعتزازي بأن أكون ابن هذه الأم!

٢

هل علي أن أروي لكم تفاصيل رحلتي إلى أرض الوطن، هجرتي الأخيرة التي تطلعت إلى أن أختم بها مسلسل الهجرات المتعاقبة. تعرفون دون شك كيف يعامل الإسرائيليون الفلسطينيين، كيف تستولد العنصرية القبيحة سلوكها القبيح. فإن تصورتم أني حظيت بمعاملة مختلفة لأني ضيف القيادة التي عقدت الصلح مع إسرائيل أو لأن لي المكانة التي تنسبونها أنتم إليّ أو لأن آثار الدّاء الذي يفتك بعامودي الفقري ظاهرة للعيان، وإن تصورتم أن وجعي إزاء معاينة التطبيق الفعلي للاتفاق كان أخفّ من أوجاع غيري ما دمت قد عارضت هذا

الاتفاق مسبقاً ولم أعلل نفسي بأي أوهام، إن تصورتم أي شيء من هذا القبيل أو ذاك، فكفّوا من فضلكم عن التصوّر إلى أن تعرفوا ما الذي جرى!

نعرف أن المكتوب يُعرف من عنوانه. وعنوان الوضع الذي أنشأه اتفاق أوسلو دلني عليه ما وقع على معبر الحدود. وأوّل حروف العنوان ظهر عند البوابة التي تسدّ جسر اللمبي أو جسر الملك حسين، الجسر الخشبيّ القصير والضيّق الذي يصل فلسطين بالأردن. فهنا توقف الباص أمام أول حاجز إسرائيلي. وكنّا ما نزال في أول الخريف، فكان حرّ الغور لاهباً، فلم يُسعفنا المكيّف الكليل في الباص العتيق. ومنذ توقّفنا، تلا سائق الباص التعليمات التي يبدو أنه يتلوها في كل رحلة وبدا حريصاً على أن يفهمها كلّ راكب: ابقوا جالسين في مقاعدكم، ممنوع الوقوف، وأخطر منه الحركة داخل السيارة، ولا تغطّوا النوافذ بالستائر، ولا تنسوا أن التدخين ممنوع! ولم يكن وراء القضبان الحديدية للبوابة ما يساعد على أن نفهم لماذا أُوقف باصنا فيما راحت القضبان تنفرج كلّما وصلت إلى أحد جانبي البوابة سيارة إسرائيلية. وقد طال الانتظار واشتدّ وقع اللهب. وكان عسكر إسرائيل الذين تفصلنا عنهم القضبان دائبي الحركة أو منهمكين في أحاديث، دون أن يبدو أن وقوفنا داخل الصندوق المعدني الملتهب يشغل بالهم أو أن معاناتنا تثير فيهم أي مشاعر. وكما توقفنا لسبب غير مدرك، انفتح الطريق لنا دون أن ندرك ما الذي استجدّ فأذن بفتحه.

دامت وقفتنا هذه ثمانية وعشرين دقيقة بزمن عقارب ساعتي أو ثمانية وعشرين دهراً بزمن القهر والهواجس. وكان واضحاً لكلّ منا أنها وقفة ليس لها لزوم إلا أن يكون المحتل مصراً على أن نعرف أنه هو الذي يأذن وهو الذي يمنع حتى مسألة عبور الجسر المفضي إلى أرض الوطن. وهذا هو في أي حال ما تهامسنا به في ما بيننا حين منعنا أنفسنا بأنفسنا من تبادل الحديث بأصوات جهيرة.

الوقفة التالية كانت على الجانب الآخر من القضبان، بعد أمتار فقط من البوابة. هنا، أحاط بباصنا جنود مسلحون راح بعضهم يراقبنا فيما الآخرون يتولون التدقيق في مخزن الحقائب وحنايا الباص وتحت أي غطاء فيه. كان التدقيق الذي تبلغنا أصداؤه بطيئاً، وقد جرى ونحن ملتصقون بمقاعدنا ممنوعون من إتيان أيّ حركة، وهذا بناء على التعليمات التي زدنا عليها نحن أنفسنا بأنفسنا التزام الصمت. وبعدما اطمأنّ جنود إسرائيل إلى أن الباص لا ينقل في أي من مخازنه أو فجواته أو حناياه ما يهدّد الدولة التي يحتلون، هم جنودها، أرض غيرها، صعد جنديان مسلحان ببندقيتين إلى الباص بينما بقي زملاؤهما محيطين به، ووقف احد الجنديين وقفة ترصّدٍ في آخر الباص فيما وقف الجندي الثاني الوقفة ذاتها في أوله. وبهذا، صار كل راكب في مرمى نظرات الجنديين مثلما هو في مرمى رصاصهما. ثم صعد رجل أمن لا يحمل سلاحاً ظاهراً وصعد معه احتقاره الظاهر وبغضه لركاب الباص، بغضه الذي لا يتستر عليه. وتولى الرجل التدقيق في وثائقنا، لا لشيء، كما اتضح لي، إلا ليتحقق من أن كلّ راكب يحمل

ما يجيز له الوصول إلى المبنى الذي تشغله إدارة المعبر. وكان هذا التدقيق هو الآخر بطيئاً، أجراه الرجل بإيقاع ذكرني بإضراب التباطؤ عن العمل. تُقدّم للرجل الأوراق التي يطلبها منهك فيقلّبها واحدة واحدة، ثم يقلّب كلّ واحدة صفحة صفحة، ويقرأ المكتوب في كلّ صفحة، بعضه أو كلّه، ويتأمّل في الصور، ويقارن بين كلّ صورة وبين وجهك، ثم يقارن بين الصورة التي على وثيقة السفر أو بطاقة التعريف وبين التي على إذن الزيارة، يجري رجل الأمن المقارنة دون أن يخفي استرابته، ثم يعيد إليك أوراقك، يعيدها؟ إنه يلقيها نحوك إلقاء فتلتقطها يداك إن كنت منتبهاً أو تقع في حجرك أو تسقط على الأرض، ثم ينتقل هو وبطؤه واسترابته إلى الذي يليك. هذه الوقفة استغرقت أكثر من ساعة بحساب العقارب، ناهيكم بحساب القهر والتأذي!

الوقفة الثالثة كانت إزاء بوابة أخرى تعبرها السيارات كي تصل إلى مبنى إدارة المعبر. هنا، عند هذه البوابة، وقع نظري على جنديّ جالس على الأرض وظهره مسنود إلى عضّاده اسمنيّة وإحدى ساقيه ممدودة أمامه والثانية مثنية وإحدى يديه ممسكة ببندقيّة قائمة بحذائه والأخرى طليقة.

وكان هذا الجندي يتبادل حديثاً مع زميل له ظهره مسنود إلى العضّادة ذاتها وهو واقف وبندقيته في يد فيما يده الأخرى تتحرك في إيقاع بدا مُتسقاً مع إيقاع الحديث. وكانت على رأس الجالس الطاقية التي تظهر

انه يهودي متدين، أما زميله فكان يعتمر خوذة الجنود. ولم ينقطع حديث الجنديين بوصولنا، كما أنه لم ينقطع حتى حين كان ذو الطاقية يلتفت ويلقي نحونا نظرة تمتدّ كما بدا لي الوقت الذي يحتاجه ليتيقن من أن معاناتنا وسط اللّهب لم تُنتقص. وقد دامت وقفتنا هذه بزمن عقارب الساعة عشرين دقيقة.

الوقفة التالية، الرابعة على مسافة لا تزيد عن بضع مئات الأمتار، كانت إزاء مبنى الإدارة. هنا، توقّف الباص بمحاذاة رصيف ملتصق بالمبنى فهرع ناحيته مسلّحون كانوا في الانتظار فأحاطوا به. وأبقتنا تعليمات السائق في مقاعدنا. وكنّا هنا، أيضاً، ممنوعين من إتيان أيّ حركة. وعندما تلقى السائق الإشارة المناسبة، أذن الرجل لنا بالنزول مهنئاً إيّانا بسلامة وصولنا مما عنى أن هذا سيكون آخر عهدنا بباصه. وتوجّه كل راكب إلى حيث كُوّمت الحقائب بجانب الباص واستلّ حقيبته من الكومة والتحق بالصفّ الطويل الذي يقف فيه الوافدون قبلنا. ومثل كلّ شيء آخر، كان الصفّ يتحرّك ببطء حتى لكأنه ثابت. وحين بلغت أنا مقدمة الصفّ بعد دهور لم أحسب عددها، وجدتني إزاء فتاة أمن إسرائيلية ومساعدين لها موكّلين باستلام الحقائب. النظرة المستريبة، بل النظرات، والحركات المستهينة، ونبرة الصوت المنتهرة، والتعالي، وفوهات البنادق، وعيون حامليها التي تمسح الواقفين في الصفّ كأنها الكشّافات الضوئية التي تمسح مواقع العدو في زمن الحرب، هذا هو ما أحاطني وأنا مجمد إزاء الفتاة بانتظار أن أعرف خطوتي التالية.

طلبت الفتاة أوراق سفري، وفحصتها، وأجرت المقارنات. وحين بدا أن الفتاة فرغت من فحص أوراقي، شال حمّال من مساعدي الفتاة حقيبتي ووضعها على آلة الفحص. وألصقت الفتاة قسيمة على الحقيبة ثم ألصقت قسيمة مماثلة على وثيقة سفري. ولأنّ هذا كلّه جرى ببطء، فقد أتيح لي أن أتأمل التي أقف مجمداً إزاءها. ولم أصدق أنّ فتاة في أولى عشرينيات عمرها، جميلة ورشيقة وبارزة الأناقة، يمكن أن تظهر لمسافر عابر كل ما أظهرته فتاة الأمن الإسرائيلية من بغض واحتقار لو لم توجب وظيفتها عليها إظهاره. لم يكن في هيأتي ما ينفّر، ولم أظهر ضيقي بل أرغمت نفسي إرغاماً على التجلّد، فهي إذن، طبيعة المهنة التي تمارسها هذه الفتاة، وهو الموقف الذي وضعها في صفّ المعتدي الصلف، ولعلها، أيضاً، التعليمات التي تتلقاها من رؤسائها. رسمت هذه الطبيعة مشاعر الفتاة وصاغ الصلف سلوكها. وأجازت لها التعليمات أن تحيطني بما أحاطتني به دون تستر أو أوجبت عليها أن تحيطني به. ولي أن أزعم أني رصدت التماعة شعّت في عينيّ فتاة الأمن هذه ففسرتها أنا على أنها التماعة ضيق. وقد تساءلت عما يضايق الفتاة، أهو اضطرارها إلى أن تتصرف بفظاظة، أم هو اضطرارها إلى التعامل مع ناس تبغضهم؟ هل كانت الالتماعة انبجاسة مشاعر إنسانية تكبتها الوظيفة أو تعبيراً عن مشاعر عنصرية تبيح الوظيفة الإفصاح عنها؟ تساءلت، ولم أصل إلى إجابة.

ويبدو أن انشغالي بمراقبة الفتاة أبقاني أمامها أطول مما هو مباح. وقد

أخرجني من شرودي فحّةٌ أحسست نثار سمّها على جلد وجهي: «يللا!»، يللا جافرة فحّتها الفتاة وهي تدفعني بأوراقي ذاتها كي أنصرف عنها. والتقطت الأوراق، وتبعتُ الذين سبقوني على خط سير حددته عيون الجنود وفوهّات بنادقهم.

خطوات قليلة أبلغتني مدخلاً تتصدره لوحةٌ مكتوب عليها: السلطة الفلسطينية، وقد رُسم العلم الفلسطيني بجانب الكتابة. وتصورت أني خرجت من دائرة البغض والاحتقار وانتقلت إلى ربعي. لكن، ما أسرع ما انطفأ تصوّري!

كنت أمنّي النفس بمتعتين، متعة الملامسة الأولى مع أرض الوطن الذي أعود إليه بعد نفي طالت مدّته ومتعة اجتياز معبر أتعامل فيه لأول مرة في حياتي مع رجال أمن فلسطينيين. المتعة الأولى غاضت في طاقية جنديّ الحاجز العسكري حتى لقد نسيت أمرها نسياناً تاماً. أما الثانية، هذه التي تطلعت إلى الظفر بها لأن الاتفاق نص على أن يكون الوجود الإسرائيلي على معبر الحدود غير مرئي، فقد غاضت هي الأخرى مع توالي المشاهد التي بيَّنت كم هو سافر وكثيف ومتسلّط هذا الوجود. وحتى بعد أن عبرت المدخل الذي تتصدره اللوحة، فقد توجب أن أتوقف ثانيةً إزاء فتاة أمن إسرائيلية ومساعدين لها كي تفحصني، أنا نفسي، آلة أشعة عُيِّرت بحيث لا يعبرها حتى خاتم الزواج دون أن يثير جلبة. بالرغم من هذا، فإن رؤيتي اللوحة، وما هو مكتوب ومرسوم عليها أثّرت فيّ، وطغى التأثّر على ما كابدته من مرارات.

وقد اشتدّ تأثري حين وقعت عيني، بعد عنائي مع آلة الأشعة وفتاتها التي أرغمتني حتى على خلع حذاءيّ، على شاب فلسطيني مشرق الوجه في بذلةِ خدمةٍ جديدةٍ وأنيقة وعلى كتفيه شارات تظهر أنه ضابط، وهو يرحب بالقادمين.

السلطة، والعلم، وهذا الشاب وترحيبه بي، فكيف لا أنسى ضيقي بما مررت به. ولم يكن غريباً أن أحسّ ببراعم فرح تتفتح في داخلي وأنا أستجيب لترحيب الشاب كأنه قريب لي أوفدته الأسرة ليكون في استقبالي. ولقد كان هذا تحولاً في مشاعري، تحولاً كان من شأنه أن ينمو فتواصل البراعم تفتحها لو لم يُعاجلني ما أخمد الفرح واجتثّ كلّ برعم.

استقبلني ناس أمن فلسطينيون، شابّات وشبّان دُرّبوا تدريباً حسناً وهُندموا هنداماً أنيقاً. وأشعرني هؤلاء بأني حقّاً بين أهلي. وفي صدر الصالة التي كنت فيها، جلس أربعة من هؤلاء خلف منصّة اتجهت أنا إليها. وتسلمت أوراقي شابّة في زيّ الشرطة لها سمات ساكني الغور وحلاوة وجوههم. وقد رحبت الشابّة بي وهي تجتهد في إظهار الكياسة، ودققت أوراقي دون استرابة، ثم دعتني إلى الانتظار، وطمأنتني: «لن يطول».

والواقع أن ما لم يطل كان هو ابتهاجي بهذه المعاملة الكيّسة، أما انتظاري فقد طال. فوراء المنصة، وراء ناس الأمن الفلسطينيين وأعلى

منهم، تنتصب واجهة بعرض المنصة يستطيع الجالس وراء زجاجها أن يراك دون أن تراه. وقد انتبهت إلى هذه الواجهة حين وضعت الشابّة الفلسطينية أوراقي في جارور ودفعت الجارور ناحية الجالسين وراءها. ثم رأيت كيف رجع الجارور وفيه أوراق العابر الذي تقدمني في الصف. ولما امتدّ انتظاري وامتدّ دون أن يعيد الجارور أوراقي، فقد بدا على شابّة الأمن الحرج. وقبل أن أمعن في التكهّن، انفتحت سمّاعة مثبّتة على المنصّة، وقال صوت له النبرة التي لفتيات الأمن الإسرائيليات شيئاً بالعبرية، فطلبت منّي الشابة الفلسطينية أن أدير وجهي بكامله ناحية الزجاج حتى تراه صاحبة الصوت. ثم انفتحت السماعة مرة أخرى وصدر أمر الصوت إليّ أنا، صدر بما ظنّت صاحبته أنه كلام عربي: «فيسال، شيل ندّارة!» فنحيت نظارتي عن وجهي؟

أدركت لماذا طال انتظاري، فالمتأملة في صورتي أربكها وضع عينيّ الذي تظهره الصورة مختلفاً عما تراه هي من وراء زجاج واجهتها وزجاج نظارتي الطبية. فأنا أحمل عيناً واحدة طبيعية أما الثانية فصناعية شبيهة بالطبع بالعين الأولى لكنها لا تتحرك مثلها. وفي العادة يجتهد ملتقط صورتي كي تظهر العينان متطابقتين في شكلهما، أما في وقفتي أمام الزجاج وحركة عين وجمود الثانية فقد بدا شكل عينيّ مربكاً للمتأمّلة في الصورة.

وحين رجع الجارور بشيء، تبيّن أنه أرجع وثيقة سفري دون بقيّة الأوراق، وظننت أنهم، وراء الزجاج، لم يفرغوا بعد من تدقيق

أوراقي، فوطدت النفس على مزيد من الانتظار. لكن سرعان ما انفتحت السماعة وصدر منها شيء بالعبرية شرحته الشابة التي اشتدّ تحرجها، فعرفت أن المخابرات الإسرائيلية تطلبني وقد حولت أوراقي إلى مكتبها في المعبر. وقالت الشابة: «حسب الاتفاق هذا من حقّهم».

وفيما أنا منصرف عن المنصّة، وجدتني وجهاً لوجه أمام فوزي عودة، وعرفت أن هذا الضابط في قوات الثورة الفلسطينية قد صار مقدماً في شرطة السلطة وأوكلت إليه السلطة مسؤولية المعبر الذي أنا فيه. وترك فوزي ما كان قادماً من أجله واصطحبني إلى حجرة مكتبه وطلب لي فنجان قهوة ليروق مزاجي كما قال. وتحدث فوزي في الهاتف إلى من أدركت أنه الإسرائيلي الذي طلبني. وقال فوزي ما يمكن قوله في هذا المقام: «الأستاذ فيصل صديقي، وهو كاتب وعضو مجلس وطني، وهو ضيف الرئيس الفلسطيني وصديقه»، وما إلى ذلك مما توخّى صاحبي أن يبهر به من أنا مطلوب منه.

- هي مسألة سؤال وجواب، ستذهب حالاً إلى الذي استدعاك ولن يحوجك إلى الانتظار.

وهداني شرطيّ فلسطيني إلى باب لا يحق له هو أن يتخطّاه وهناك، تسلّمني إسرائيلي من أعوان رجل المخابرات، فسرت وراءه وكلانا صامت. وانتهينا إلى حيث ينتظم صفّ طويل من الفلسطينيين الذين استدعوا قبلي. وخطر لي أن أقف في آخر الصف مع علمي بأني غير مطالب بالانتظار. ألا يحرج المقهور أن يتخطّى مقهورين مثله ويتميّز

منهم. إلاّ أن الإسرائيلي حثّني على المتابعة بإشارة من يده صارمة الدلالة، فسرتُ وراءه في موازاة الصفّ خافض الرأس. وفجأة، هدر صوت بإسمي، وكان صاحب الصوت هو حنّا ناصر رئيس جامعة بيرزيت الذي أعتزّ بعلاقتي الطيبة به. وشئت بالطبع أن أقف وأسلّم على الصديق الذي ألقاه لأول مرة على أرض الوطن. غير أن الإسرائيلي سحبني من يدي سحباً ثم وقف بي أمام باب طَرَقَهُ طرقةً خفيفةً وفتحه ودفعني إلى الداخل. ووجدتني إزاء رجل في ملابس مدنية جالس على كرسي خلف مكتب وأمام المكتب كرسي آخر شاغر.

تلقّاني رجل المخابرات الإسرائيلي بنظرة تفحّصتني بصرامة منذ ولجت باب حجرته. وعندما صرت أمام الرجل، وقف هو، ومدّ يده للمصافحة، وقدّم نفسه بهذا الاسم العربي: »فريد«. ورحّب الرجل بي بعربية طلقة، بعبارات إن كنّ من العبارات الجاهزة فهنّ مما لا يستخدمه الإنسان إلا حين يصطنع المودة.

- فريد اسم مستعار بالطبع.

أردت أن يفهم رجل المخابرات بهذا أني لست غرّاً تأكل المجاملات حذره ولا قليل الخبرة. وقد تجاهل هو ملاحظتي حتى لكأنه لم يسمعها، وواصل ما بدا لي أنه أسلوب مهنيّ تدرب عليه، فكرر الترحيب. كان هذا رجلاً في عقده الرابع، ومع أنّي تأملته لأعرف منبته فإن ملامحه لم تشِ بهذا المنبت، فهي ليست اشكنازية كما أنها ليست سفاردية وليست حتى بين بين. ودلّ حديث الرجل على أنه يتقن

العربية إتقاناً متميزاً ويستخدم اللهجة التي يستخدمها من حصّلوا من الفلسطينيين تعليماً عالياً. إلاّ أن نطق الرجل بعض الحروف اتسم بلكنةٍ تكشف أنه ليس من أبناء العربية وإن بدا أنه يحرص على إخفاء هذه اللكنة.

اللكنة ومحاولة إخفائها، وزيف الترحيب، والإفراط في استخدام عبارات المجاملة الجاهزة، هذا كلّه قوّى حصانتي ضدّ الوقوع في أفخاخ الكلام. ودون أن أقصد ذلك، انبثق من خزين المرارات ما تحويه الذاكرة من جرائم رجال المخابرات الإسرائيلية، فتفاقم ضيقي، واحتجت إلى استنفار إرادتي بأشدّ قوّتها كي أسيطر على ردّ فعلي.

شاء الرجل، على ما بدا لي، أن يجعل ترحيبه بي فاتحة لحديث تنحلّ فيه تحفّظاتي، فبدا لي غبياً لأنه اختار هذه الفاتحة الزائفة بالذات.
كنت على يقين من أن المرحب بي لا يُكنُّ لي أي مودّة، ولا تبهره الصفات التي أضفاها عليّ المقدم فوزي، وليس في عودتي إلى وطني الذي يحتلـّه جيشه ما يسعده. وما دام الرجل قد غالى في الترحيب، فإنه لم يزد على أن دفعني دفعاً إلى الإحساس بأنه يستغبيني. وقد تحتمل أن يستغبيك من ليس عدواً لك، أما أن يستغبيك عدوّ فهذا فوق الطاقة.

هل فطن رجل المخابرات إلى هواجسي؟ لا أظنّ أن هذا المحترف قد فطن لأيّ شيء، فلو أنه فطن لـَما أمعن في اصطناع المودة. وأغلب الظنّ أن الرجل نسب صمتي وهو يرحب بي إلى دهشتي إزاء حسن

استقباله. وفيما هو ماضٍ في ما بدأ به، أخذت المسافة التي تفصلني عنه تمتلئ باللزوجة. الاسم المستعار من أسماء العرب، والابتسامة المرسومة بريشة المهنة القبيحة، والمغالاة في الزيف، فهل يمنعني الختل عن التفكير بأنّ هذا الرجل ذاته ربما عذّب بيديه زملاء لي وأصدقاء وأقرباء. ألم يرسل ناس المخابرات الإسرائيلية، على تعدّد مؤسساتهم، ألوفاً من أنبل أبناء فلسطين إلى المعتقلات، ألم يعذّبوهم، ألم يفتكوا ببعضهم حدّ القتل، أليس الاحتلال في حدّ ذاته جريمة وهؤلاء هم عيونه وآذانه مثلما أنهم هم أنيابه. مقتنع هو دون شكّ بأن معسول الكلام يفتن العربيّ ويأسر إرادته، وهل يوجد محتلّ مبرأ من العنصرية. هل قلت اللزوجة؟ إن ما فصلني عن رجل المخابرات الإسرائيلية يستحق وصفاً أعفّ عن ذكره.

- اسمك؟

أخرجني السؤال من سهومي لكنه لم يوهن إحساسي بالتأذي.

- اسمي، عمري، مهنتي، وما إلى ذلك، هذا كله موجود في أوراقي وهي أمامك. أنت لم تستدعني لأكرر ما تعرفه.

لم يكن خفيفاً ذلك الرجل، غير أن الإجابة غير المتوقعة فاجأته دون شك. وخيل إليّ أني أربكت رجل المخابرات، لكنه بقي متماسكاً.

- هذا ليس تحقيقاً رسمياً، أحببت أن أتبادل معك حديثاً، حديث

إنسان لإنسان، عرفت أنك كاتب، فأردتُ . .

- لماذا لا تدخل في الموضوع؟

- في الحقيقة ، أردت أن أعرف رأيك في الاتفاق. عندكم أكثر من رأي . .

- هذا مكتب أمن، وأنا لا أستعرض في مكاتب الأمن آرائي السياسية، هذا المكتب أو غيره، فإن كانت عندك أسئلة بخصوص مسائل أمنية تنسبها لي فإني أصغي.

تركني الرجل أتمُّ ثورتي الصغيرة، لكنه لم يؤخذ بعنادي.

- إنه الفضول الشخصي ولا شيء غيره. أحبّ أن أتعرف على الطيّبين وأعرف آراءهم في ما يشغلنا كلّنا، فما الذي تخاف منه. لو سألتني عن رأيي لأجبت بكل سرور، فأيّ ضررّ يصيبك إن أحببت أن أتعرف عليك؟

- الطيبون وغير الطيبين، يتعارف الناس في ظروف متكافئة ، يتبادلون الآراء برغبتهم وليس بالإكراه. بالإكراه يصير للأشياء أسماء قبيحة، أنت تعرف. وأنا لم ألتق بك برغبتي فأنت الذي . .

- هل كثير أن أعرف رأيك في الاتفاق؟ أنا لا أطلب أن تبوح بالأسرار.

لماذا تشبث هذا المحترف بظنه أني غرّ. إني أعرفهم، وهم متماثلون، ناس المخابرات هؤلاء في كلّ مكان، قل أي شيء أمامنا في البداية وبعدها يأتي وقت قول ما نريد سماعه.

- رأيي في الاتفاق لا أعرضه أمامك. حكومتكم فاوضت منظمة التحرير الفلسطينية، منظمتي، وإذا كان عندي ما أقوله فإني أقوله لناسنا. فهل يرغمني الاتفاق على عرض آرائي أمام مخابرات إسرائيل؟

يبدو أن الملاحظة التي قلتها من باب المشاكسة كانت نقطة في الصميم. فالبروتوكول الذي ينظم إجراءات المعبر لا يجيز التنقيب في آراء العابرين. وأغلب ظنّي أن الرجل تصوّر أني مطّلع على هذا البروتوكول. والذي حدث أن رجل المخابرات وقف فجأة وبسط ابتسامته المهنية على وجهه، ومدّ يده لمصافحة الوداع، وسأل: »كاتب؟ فهل أنت كاتب سياسي أو أديب؟«.

أن ينتهي اللقاء في هذا النحو، بهذه السرعة، أن لا أتعرض للمتاعب التي هجست بها، كان في هذا نجاة لم أتوقع الظفر بها بهذا اليسر، فوجدتني أقول بنبرة بارحتها روح التحدّي:

- الأدب والسياسة معاً، الأدب هو الحياة، والسياسة هي أيضاً الحياة.

ولدهشتي، أنا الذي صرت راغباً في الحديث، لم يُبدِ هو أيّ اهتمام بما أقول، حتى لقد خيّل إلى أنه لم يصغ إلى إجابتي.

فوجئ المقدم فوزي بعودتي : »لم تبرد القهوة التي طلبتها لك«. فرويت ما جرى. وحثّني صاحبي على استعادة أدق التفاصيل. وهو الذي أفهمني أن البروتوكول يجيز لي أن أرفض الإجابة. لكن صاحبي الذي تلقى موقفي بارتياح حذّرني : »لن يفوّتوها لك، فهيئ نفسك لاستفزازاتهم!«.

توجهت إلى المخرج الذي مَثُل أمامي وأنا أظنّ أن متاعبي على المعبر بلغت نهايتها. غير أن رجل أمن إسرائيلي رابض وراء كمبيوتر استوقفني وعالج أزراراً على كمبيوتره ثم أفهمني أني مطلوب لتفتيش ما لم تفصح عربيته البائسة عن طبيعته. وتوجهت إلى حيث أشار رجل الكمبيوتر لأكتشف أني مطلوب لما يسمّونه التفتيش الأمني.

وهنا، أيضاً، كان في الانتظار عدد كبير من الخلق، فتوجب أن أنتظر ساعة، ساعة بحساب عقارب الساعة. أما بحساب المرغم على البقاء بغير حركة الذي تكتنفه النظرات المستريبة وفوهات البنادق، فقد بدت هذه الساعة دهراً مديداً. وحين طولبت بالتوجه إلى الركن المنزوي الذي يُجرون فيه هذا التفتيش، وجدت منصّة تقف وراءها فتيات الأمن الموكلات به، ولم أعرف إلى من منهن ينبغي أن أتجه، فبقيت حائراً إلى أن جاءني أمر إحداهن : »هون، من فدلك!«. هذه العبارة التي

ستبدو لمن يقرأها مهذبة جاءت مع النبرة التي صرتم تعرفونها انتهاراً لا صلة له بأي تهذيب. وبالنبرة ذاتها، أمرت بأن أبحث عن حقيبتي بين الحقائب المكومة في الركن. وحين جئت بالحقيبة، أشارت الفتاة إلى المنصّة، ونبرت: «حط شنتة هون!». فرفعت حقيبتي، ووضعتها عل المنصّة أمام الفتاة، فيما كانت هي قد شرعت في حديث مع زميل لها قدم من حيث لا أدري وأهملتني.

طالت وقفتي أمام المنشغلين بحديث بدا لي بغير نهاية. واشتدّ ضيقي، أنا المزروع في الموقف المحرج المتهيب من التفوّه بكلمة أو الإتيان بحركة. وحين انتهى الحديث آخر الأمر، كست الفتاة وجهها تكشيرة ويديها قفّازين، واستعاد صوتُها النبرة المنتهرة. وبهذا كلّه، سدّدت فتاة الأمن نحوي رشقة أسئلة: هل هذه الحقيبة لك؟ هل ساعدك أحدٌ على تعبئتها؟ هل فيها سلاح؟ مال؟ مجوهرات؟ هل حمّلك أحدٌ شيئاً لتنقله إلى إسرائيل؟ هل أنت، إذن، مسؤول عن كل ما في الحقيبة؟ فلمّا لم تشِ إجاباتي بما يريب، فقد صدر الأمر على الفور: «افتح شنتة!». وما أن عالجت قفل حقيبتي وفتحتها حتى طلبت الفتاة منّي، بالإشارة، هذه المرّة، أن ابتعد عنها وأجلس على مقعد قبالتها.

من هذا المقعد، راقبتُ اليدين وهما تجوسان في الحقيبة وتستخرجان حوائجي قطعة قطعة وتنتهكان خصوصية أشيائي بلا تستر، تبقيان قطعاً في الحقيبة وتكوّمان قطعاً أخرى إلى جانبها. وقد استخرجت اليدان

الآلة الكهربائية التي تنظّم تنفسي أثناء النوم، أنا المصاب بداء يجعل رئتيّ أكسل من أن تقوما بالمهمة وحدهما. ويبدو أن الآلة حيّرت الفتاة. وكنت محتاطاً لهذا الموقف فأبقيت مع الآلة كرّاس التعليمات الخاص بها والتقرير الطبي الذي يصف لي استخدامها، لكن الفتاة لم تنتبه لوجودهما.

وشئت إزاء حيرة الفتاة أن أجتذب انتباهها إلى الكرّاس والتقرير، فنهضت عن المقعد ناوياً أن اتجه إليها، غير أن الصوت المنتهر زجرني: «إبكَ كرسيّ». ومن حسن حظي أني فهمت هذه العبارة التي لا تُفهم، فبقيت في كرسيّ. واستدعت الفتاة أحداً، فلبّاها من بابٍ خلفها فتى حمل الآلة ومضى بها، ثم استأنفت النبش والفرز حتى استوفته. وعندما أرجع الفتى الآلة، تصورت أن أوان خلاصي قد حان. لكنّ الفتاة كانت قد انشغلت من جديد بحديث جرى هذه المرة مع زميلة لها استوفت نبش حقيبة أخرى.

وفي حيرتي، أنا الذي رأيت ما جعلني أستحضر أجواء روايات فرانز كافكا، لم أدر ما إذا كان من حقّي أن أنبّه الفتاة إلى حاجتي للإنصراف أم إن في هذا مجازفةً بالتعرض للزجر. وبالرغم من اشتداد ضيقي، آثرت أن أنطوي على حنقي، وشحنت تصبّري بدفعة جديدة مما بقي من قوة إرادتي، وهدّأت نفسي. ومضت بحساب عقارب الساعة دقائق أخرى، صرتم تعرفون كيف أقيسها أنا بحساب الضيق، وأنا أهدهد الأمل بأن الفتاة ستنتبه لي ذات لحظة فتطلق سراحي. وحين حانت

هذه اللحظة وانتبهت الفتاة إلى عملها من جديد، توقعت أن تستدعيني هذه الفتاة لألمّ حوائجي وأمضي بها. إلا أن الفتاة هتفت بدل ذلك بإسم، فلبّاها شاب تظهر ملامحه أنه من يهود اليمن. وحمل الشاب حوائجي المكومة إلى جانب الحقيبة ومضى بها. زمن آخر أطول، وضيق أشدّ، وفقدان حيلة معذّب، ثم عاد الشاب بحوائجي وألقاها إلقاء داخل الحقيبة. وفي هذه الأثناء، كانت الفتاة التي أنتظر منها إشارة الخلاص قد انشغلت بحديث جديد. ولم أهتد أنا إلى وسيلة أنبّه بها الفتاة لوجودي دون أن أتعرض للزجر أو أثير ريبة العيون وفوهات الأسلحة التي تحيط بنا.

وأبقتني حيرتي في مقعدي دهراً آخر إلى أن صار وقع الانتظار أثقل من أيّ قدرة على الاحتمال. فوقفت بجانب مقعدي متردداً بين التهيب والإقدام. وعندما انتبهت الفتاة إليّ بدا أن حركتي ساءتها، لكنها لم تزد عن أن رمتني بنظرة مؤنبة ودعتني بإشارة من يدها إلى المنصة ثم نبرت: «سكّر شنتة!». فتعجلت تسوية حوائجي وإقفال الحقيبة كيفما اتّفق، وهممت بالانصراف بها فيما الفتاة منشغلة بالحديث. لكن، ما أن حرّكت حقيبتي، وقبل أن أبرح بها المنصّة، حتى اتّضح أن يقظة فتاة الأمن ما زالت تشملني: «شو إنت ما بيفهم، حمار إنت؟ خلّ شنته وانكلع!». وجلجلت الشتيمة في المكان وسمعها كل من فيه.

رويت لكم هذه التفاصيل كلها لتدركوا سبب انفجاري بعد أن احتملت ما احتملت. لم أفهم سرّ استياء الفتاة ما دمت لم أخالف لها

أمراً أو إشارة. كما لم أفهم لماذا ينبغي أن أنصرف بدون حقيبتي التي استُوفي تفتيشها. فهل كان بمقدوري أن أواصل ابتلاع المهانات دون أن أنفجر. وجود المحتلّين في حدّ ذاته فيه ما يكفي من الاستفزاز حتى لو أحسنوا السلوك، فكيف والسلوك هو هذا الذي وصفت لكم بعضه!

انفجرت دفعة واحدة. فاض مخزون الحنق، قديمة ومستجدّة. وهدر كلام لم أنتق تعابيره ولم أدققها. إنه الحنق حين ينفثئ دمّله فيسيل ويهدر. ولم أنتبه إلى نفسي إلا حين رأيت الفتاة تبكي. نعم، بكت فتاة الأمن، فأذهلني بكاؤها.

كان المقدم فوزي قد غادر المعبر فانشغل معاونوه بالمشكلة، الجدل الممضّ مع أسياد المعبر، والاتصالات، ومكتب الرئيس في أريحا الذي يبدو أنهم استنجدوا به. كل هذا وأنا محتجز ومتهوم بأني أهنت موظفة أمن واعتديت عليها أثناء قيامها بواجبها وتمردت على أنظمة المعبر. ساعتان بحساب العقارب ولا داعي للانشغال بحساب آخر؛ مرّ الوقت وأنا أتوجس أني لن أنجو من هذه الورطة، فكيف تقاس أوقات الهواجس. وفي الختام، انعقدت تسوية. وقيل لي إن التسوية تيّسرت لأن الفتاة سامحتني وغفرت لي تطاولي عليها. وصار عليّ وفق أحد بنود التسوية أن أطيّب خاطر الفتاة فأعتذر لها وأطلب رضاها ثم أشكرها على تسامحها.

و في الركن الذي أرجعت إليه لأصالح الفتاة، توجب أن أتبع بقية

الإجراءات. ولما كانوا قد روضوني على احتمال الأذى حتى لا أتعرض لأذى أشدّ منه، فقد اتبعت هذه الإجراءات وأنا مستكين. واتّضح أن من المحظور على العابر الفلسطيني حمل حقيبته بنفسه في أي مكان فيه ناس الأمن الإسرائيليون، وهؤلاء موجودون في كل مكان. أما كيف تعبر الحقائب المعبر فإن ساحباً آلياً يلقيها بعيداً. وقد وجدت حقيبتي وسط كومة الحقائب التي ألقاها الساحب على الجهة الأخرى من المخرج الذي يربض رجل الكمبيوتر عنده.

المحتل جائر، والواقع تحت سطوة الاحتلال ضحيّة. معتد وضحية، هذا هو جوهر الوضع، وهو جوهر لا يبدّله نوع السلوك الشخصيّ لأي من طرفيه. ولن ينصلح هذا الوضع إلا بزوال الاحتلال.

- علينا أن نصبر. نحن على أول درب والمشوار طويل يا أخي ومعقّد. وليس لنا إلا الصبر.

بهذه الكلمات واساني موظف في الجمرك الفلسطيني الذي كان آخر من تعاملت معهم، فعرفت أنه قد انشغل بالمشكلة هو الآخر. وهذا الموظف هو الذي دلّني على الباص الذي يحمل العابرين إلى الاستراحة المخصصة لهم في أريحا وقال: »في الاستراحة تجد السيارات التي تنقل المسافرين إلى شتى الاتجاهات«.

غادرت عمان في السابعة صباحاً. وغادرت المعبر الأردني بعيد

الثامنة. ولو لم يكن الاحتلال الإسرائيلي موجوداً لبلغتُ أريحا بعد دقائق، سبعة أو ثمانية. أما مع وجود هذا الاحتلال، فقد بلغت أريحا في الثانية بعد الظهر.

أيها الوطن الذي لا وطن لنا سواه، كان الخروج منك موجعاً وصارت العودة إليك موجعة. والسبب واحد في الحالتين والمسبّب!

٣

فحص السائق الريحاوي إذن الزيارة بإمعان ونبّهني إلى أنه يجيز لي زيارة غزّة وحدها ويوجب أن أبلغ حدود القطاع قبل السابعة مساء. وقال السائق إن في التوقف على الطريق مجازفة، فرخصة سيارته تجيز له نقل الركاب على الطريق إلى قطاع غزّة لكنها لا تبيح له الوقوف. ولما لاحظ الرجل الذي طلبت منه أن يتوقف في أماكن بعينها أني أصغيت إلى تحذيراته بتفهم، فقد قدّم من تلقاء نفسه عرضاً.

- سنعبر الضفـّة، وسنعبر بقية البلاد، هذه التي صار اسمها إسرائيل، وبإمكاني أن أخفـّف السرعة في أيّ مكان تحنّ إليه حتـّى تتملاه، أخفف

السرعة لكن لا أقف.

ولئن صبّت شروح السّائق ماء بارداً على لهفتي، فقد منّتني برفقة رجل أريَحيّ. وما كان أحوجني في ذلك الظرف بالذات إلى مثل هذه الرّفقة!

أريحا بلدة أطفأ طول الإهمال ألقها الذي تحتفظ ذاكرتي ببريقه أنا الذي زرتها في العام ١٩٥٦ في رحلة مدرسية قادمة من سورية. ومخيمات أريحا، النويعمة وعين السلطان وعقبة جبر، هذه التي كانت تعجّ بالحيّوية والنشاط السياسي خلت من سكّانها وصارت دورها أطلالا. على امتداد الطّريق شميم خراب، وفي معظم الأمكنة مظاهر عوز. والجزر القليلة الناجية تشعرك بأنها تنتظر أن يحلّ عليها الدور. أما القدس التي طلبت من السائق أن يبطئ منذ أشرفنا عليها فقد حلّ بها أوجع ما أثار مواجعي.

تحتفظ ذاكرتي بعتيق المدينة المضمخ بعبق التاريخ وجلال القداسة منذ أخذتني أمي إليها وأنا طفل لم يبلغ السادسة. وقد اغتنت الذاكرة بما انضاف إلى مخزونها في العام ١٩٥٦. الجليل المقدس وعبقه، والعمائر التي تتطيّب بهذا العبق وتحيط بالعتيق فتحتضنه بانسجامها معه، العمائر التي لا مثيل لها إلا في هذه الناحية من العالم، والأماكن ذات الإيحاءات التي لا ضفاف لها. هذا كلّه فتكت به أطماع المعتدين، فتبدد العبق، وشاهت الأصالة، وغامت الإيحاءات، وفرضت سطوتها عمائرُ لها وظيفة المصارف وأخرى لها وظيفة الحصون الحربية وطرزها القبيحة. حرب الطمع ضدّ العراقة انتصر فيها الطمع. الحاجة إلى حماية نتائج العدوان من قوة الأصالة فتكت بالأصالة. القباحة ضد الجمال، هذا هو

ما آل إليه حال القدس. افترس هوس العدوان روح السلام، ويا فيروز من حقّك أن تغنّي للقدس وتنوحي!

أما المستوطنات التي أنشئت بين مدن الفلسطينيين وقراهم، على روابي أرضهم وذرى مرتفعاتها، فقد داهمتني مظاهر الجدّة والترف التي تميّزها وتسطع وسط محيطها البائس، غير أن هذا لم يجعلها أقل عدوانية أو أقل تنابذا مع البيئة المحيطة بها. أقيمت المستوطنات بفعل فاعلين استندوا إلى سطوة العدوان وليس إلى أي شيء آخر. ولما كان هذا عدواناً سافراً لا يسوّغه أيّ مسوّغ، عدواناً مضاعفاً، على الناس وأرضهم وبيئتهم، على التاريخ والجغرافيا، على القوانين والقيم، على الذوق العام والذوق الخاص أيضاً، فقد بثّ وجود المستوطنات سموماً تملأ الأجواء، وكان هذا هو أقبح ما صدم مشاعري وأنا أعبر الضفـّة. ولئن طلبت من السائق أن يبطئ السير مرة فإني لم أكرر الطلب، بل صرت أتعجل الخروج من طوق المشهد الذي يستفزني. وما كان أبعد هذا عمّا منّيت نفسي به: فرحة السفرة الأولى على أرض الوطن بعد غياب طويل عنه!

- ألا تحب أن أخفف السرعة في أي مكان؟
- سق بالسرعة التي تلائمك، ولا تهتم!

و لم أحتج بعد ذلك إلى من يقول لي إننا بلغنا المنطقة التي تشغلها إسرائيل. فقد صار دير اللطرون في مرمى النظر. وما كان أيسر التمييز بين متناقضين: مظاهر الخراب والعوز في الجهة التي عبرناها ومظاهر

العمران والترف في الجهة التي أقبلنا عليها!

كنا نعبر خط الهدنة القديم، هذا الذي روّج الإسرائيليون من بين تسميات عديدة أطلقت عليه تسمية الخط الأخضر فكأنّهم تقصدوا النكاية بضحاياهم. وهنا، في المدى المعمور بالطرق المريحة والأبنية الفاخرة والحقول المشعّة بالرواء، هنا أيضا ضقت برؤية ما حلّ بوطني. ومن الذي تمتعه رؤية وطنه وقد استأثر الغاصبون به وجعلوه جنّة لهم وحظروا على أصحابه العودة إليه واستكثروا عليهم حقّ التوقف على أرضه أو تفقد ما ضاع منهم فيه.

كرر السائق سؤاله، وكررت إجابتي، وكدت أطلب منه أن يزيد السرعة. وعقّب هو بكلمة واحدة: »مفهوم«، قالها بنبرة امتزج فيها التعاطف والأسى، ثم صمت. ورحنا نجتاز القرى والبلدات، يشرح هو كيف بدّل الإسرائيليون أسماءها العربية وجعلوها عبرية، وأروي أنا ما أعرفه مما يتصل بالأسماء. الاستعمار الاستيطاني وقد هزم ضحاياه، وهذا هو تجسيده على الأرض، محو المعالم، وقلب التاريخ رأساً على عقب. وحين أقبلنا على المكان الذي كانت تقوم عليه قريتي المسمِيَّة، أبطأ السائق السرعة دون طلب مني، وأشار إلى مبنى لا يعرف هو أنه محفور في ذاكرتي، وهتف: »كانت هذه هي مدرسة القرية. هدم الإسرائيليون القرية كما هدموا مئات غيرها في العام ١٩٤٨، وبقيت المدرسة، وقد جعلوها مدرسة لتدريب شرطتهم«.

ما كان أوجع ما وقع نظري عليه، مدرستي، سنوات دراستي الثلاث

الأولى ورحلة الاستهداء بنور الحروف، هي ذاتها ماثلة أمامي، البناء الذي جلبت حجارته من صخور باب الواد، والباحة، والمدخل المفضي إليها، والذكريات، مدرستي هي هي لم تتبدّل وإن شُوّهت باحتها فأقيم فيها بإزاء حجرات الدراسة براكات لإيواء الجنود المتدربّين.

و في النقطة التي تلت المدرسة، عند التقاء الطريق الذي قدمنا عليه مع الطريق الواصل بين يافا وغزّة الذي سنواصل السير عليه، جذب السائق انتباهي إلى لوحة كـُتب عليها: »المسمِيّة«. وكان هذا هو كل ما أقيم ليشير إلى ما كان في العام ١٩٤٨ قرية المسمِيّة، أو قل: المسمِيتين، الصغيرة والكبيرة ومنازلهما التي كانت أعدادها مئات وسكّانهما الذين تجاوز عددهم ثلاثة آلاف. أشار السائق إلى اللوحة، أما أنا فحضرني ما كان قائما في ذلك المكان عند تقاطع الطريقين: محطّة القطارات، وحانوت سرّيس البقال الذي كان يعدّ أشهى الفلافل، وعبثنا نحن تلاميذ المدرسة في هذا المكان الذي كنّا نرتاده كلّ يوم. وبعد أمتار، وكانت السرعة ما تزال بطيئة، مَثـُلـَت أمامي محطّة البنزين التي كان يملكها زوج أمي والتي طالما شهدت عبثي مع مجايليّ من أبنائه. ولكـَم عنـّاني أن يمثل أمامي كلّ هذا الذي حُرمت منه!

- بودّي أن تسرع!

ومع أن السائق أطلق لسيّارته العنان، فإن أوجاعي لم تخفّ، فذاكرتي تختزن أسماء المواقع التي توالت وتطفح بذكرياتي فيها ومعلوماتي عنها

وعن ما حلّ بها على يد غاصبها .

- هانت ، اقتربنا .

قال السائق هذا وهو يدخل في طريق متفرّع من الطريق العريض ويشير إلى لوحة تؤشر نحو غزة . ولم يلبث أن أطللنا على منشآت أشبه بمنشآت معسكر حربي .

- حضّر أوراقك!

كنّا قرب بيت حانون ، في مركز التفتيش الإسرائيلي على مدخل قطاع غزّة ، أو المعبر الذي أغفل المحتلّون الاسم الفلسطيني للمكان الذي أقاموه عليه ، والذي اشهروه باسم معبر إيرز .

- هذا هو حدّي ، لا يحق لي أن أتخطّاه ، تنزل هنا وتتبع الإجراءات .

وشرح السائق ما ينبغي اتباعه . وقبل أن أفارق الرجل الأريَحيّ ، استخدمت هاتفه النقّال واتصلت بمنزل أخي الذي تقيم أمي فيه .

- ليجيء شخص واحد منكم لاصطحابي ، واحد فقط ، لا أريد احتفالا ، وأنا أنذركم : إن جاء أكثر من واحد فسأرجع إلى المكان الذي جئت منه .

ما من شك في أن هذه كانت فاتحة سمجة لحديثي مع زوجة رباح التي ردت على الهاتف. غير أنّه المزاج الذي عكرته الرحلة، وهو ضيقي بالذين جعل الواحد منهم من رجعته إلى الوطن مناسبة للتباهي بعدد مستقبليه على الحدود. ولا بدّ من أن نبرة صوتي كانت حازمة الدّلالة، أو لعلّها كانت غريبة. فزوجة الأخ التي عهدتها مهذارة على الهاتف وبارعة في تدوير العبارات لم تعقّب بغير كلمة واحدة: «حاضر!».

هل خبرتم معبر إيرز هذا. هل عاينتم ما تفرزه العنصرية المسلحة بسطوة القوة وكيف تهبط بمرتبة إنسان إلى مرتبة بهيمة. وهل بقي في زمننا من يعامل البهائم كما يعامل الإسرائيليون الفلسطينيين. وهل بينكم من لا يعلم، من لم يرَ أو يسمع أو يقرأ، كيف يُعامَل الفلسطيني على يد محتلّي وطنه. إذن، لماذا أكرر الوصف وأثير المواجع، أنا الذي لا يحبّ التكرار ولا يتوخّى استدرار أي دموع.

يللا! كانت هذه اللفظة المنتهرة هي آخر ما رُميتُ به وأنا أتبع إجراءات التفتيش والتدقيق، رماني بها الجنديّ الإسرائيلي الذي أجرى آخر فحص لأوراقي. وبعدها، صار علي أن أضيف ثقل حقيبتي إلى أثقال روحي وأعبر بأثقالي الممر الضيق المؤطّر بقضبان الحديد المخصّص لعبور أهل البلاد حين يبيح لهم الاحتلال أن يجيئوا إلى قطاع غزة أو يخرجوا منه. وعند نهاية هذا الممر الذي يذكّر ضيقه بممرات البهائم، وإن كان أطول منها، تبدأ منطقة السلطة الفلسطينية. وقد انتصب هنا حاجز صدمني، أنا الخارج لتوّي من شبكة الحواجز الموحية بالسطوة، كم هو هزيل

ومتطامن.

- أوراقك، إن سمحت!

قالها فتى فلسطينيّ في زيّ الشرطة يقف على الحاجز وهو ينظر إلي نظرة لا معنى لها.

- هل تملك صلاحيّة منعي من الدخول؟

- . . .

- هل لك حق إعادتي إن وجدت أوراقي ناقصة؟

- . . .

- إذن، لماذا تتعب نفسك؟

داهمت الفتى فاقد الحول بأسئلتي فكأني كنت أداهم السلطة كلّها وأكرر رأيي في الاتفاق الذي لم يمنحها سوى المظاهر. لكن، ما أن انفثأ ضيقي حتى ندمت، لقد جبهت فتىً غريراً بما هو أكبر من قدرته على الفهم واتبعت سلوكاً طالما انتقدته أنا نفسي: التطامن إزاء ذوي السطوة وانتضاء العزم إزاء الذين لا حول لهم ولا قوة. وقد نبّهني ذهول الشرطيّ المغلوب على أمره إلى أنني أثقلت عليه دون سبب.

- اعذرني يا بني، أنا لم أقصد. . .

وقبل أن أتم اعتذاري ، هتف فتى مقبل عليّ من ناحية الحشد الذي ينتظر القادمين :

- عمّي !

عرفني ابن أخي ، فأنا كما قال وهو يستسلم لذراعي أُشبه أباه ، الهيأة ، والصوت ، وفورة الأعصاب . وتحدّث الذي طفح البشر من كلّ شيء فيه ، تحدث اللهجة الغزّاوية الصافية التي يفتنني جرسها ، فيا أيتها الأشواق المخزونة نحّي الأسى وفيضي ، فها أنا ذا قد صرت في غزّة مرة أخرى وهي ليست بعيدة عن المسميّة !

أمّي . أمّي وكل سنوات الفراق . الأم والوطن ، ابتعدت عنهما أربعة عقود ونصف عقد وها أنا ذا أرجع إليهما كليهما في يوم واحد . أقصيت عن أمي ووطني وأنا طفل لم يتخطّ العاشرة . وكنت وقتها بلا حول ولا خبرة ولا عدّة لمواجهة الحياة . وها أنا ذا قد رجعت بستٍّ وخمسين أو سبع وخمسين طافحة بالخبرات . فقدت الإبصار بواحدة من عينيّ أثناء الحرب التي أبعدتني عن مسقط رأسي ، وفقدت السمع بواحدة من أذنيّ في حرب أخرى من الحروب التي لحقتني في المنفى ، فصرتُ لا أرى محدّثي إن جلس على يساري ولا أسمعه إن جلس على يميني . احتلّ داء لا شفاء له ظهري ، واحتلّ داء آخر لا شفاء له صدري ، وتناوشتني شتى الأمراض ، وصرت لا أرتاح في قيام أو قعود ولا أهنأ في صحو أو نوم ، ولم تعد الآلام تبارحني . مع هذا ، بالرغم من كل ما حلّ بي في المنافي ، ها أنا ذا قد رجعت ولديّ العزيمة وإرادة الاستمرار ، بل الرغبة في مواصلة

الإنهماك في المعامع، أيضاً، والقدرة على التجلّي فيها.

أمي والوطن في يوم واحد. إني محتاج إلى أم تحدب عليّ وإلى وطن أحظى فيه بما يخصّني. وها أنا ذا قد رجعت، فهل ظفرت بما أحتاج إليه؟

لا تتعجلوا الحصول على إجابتي، ليس لأني أضنّ عليكم بأي إجابة، بل لأني لم أبلغ أي يقين!

خرّب الاحتلال الوطن وحظر تطوره وإن بقيت جذورٌ عجز عن اقتلاعها. وبدّلت صروف الدّهر أمي وأهرمها تواتر المتاعب وإن بقيت لها القدرة على الاحتمال. ولكم أصاب الذين ربطوا بين الأم وبين الوطن، ليس رمزياً فقط هذا الربط البليغ، ألم أره مجسداً أمامي أتمّ تجسيد.

أطلقتْ أمّي وأنا أجتاز باب الدّار زغرودة صدح رنينها في الحيّ، وهاجت. زغردت التي تجاوزت السبعين كما لم تزغرد إلا حين كانت في عزّ صباها، وهاهت أجود ما جادت به قريحتها هي المشهود لها بالابتكار في هذا المجال. استعادت العجوز فتوتها، ورقصت، ودارت حول نفسها، ذراعاها مفرودان وقدماها يخبطان الأرض. واستحوذ الوجد على المنتشية بعودة الغائب فصمت كل ما حولها. ولم تتوقف أمي إلا بعد أن كاد يُغمى عليها. وما أن استعادت أمّي قوتها حتى جذبتني إليها، واحتضنتني، وراحت تتحسس جسدي أو قولوا: تتفقده؛ ألا

تتفقد الأم جسد طفلها الراجع إلى الدّار بعد أن أشقاه عراك الشوارع. وكانت أولى عبارات أمي هي هذه العبارة التي سأتذكرها بعد وقت قصير وأظل أتذكرها بقيّة عمري:

- الآن، أستطيع أن أموت وأنا مرتاحة البال.

حظيت من أمي وأنا في المنافي بأربع زيارات قصيرة، زارتني مرة في دمشق، ومرة في بيروت، وثالثة في قبرص، ورابعة في عمان، ولم تبدر منها في أي مرة إشارة ضعف أو يأس. وعندما قالت أمي هذه العبارة، لم أتلقّها بمعناها الظاهر بل حسبتها طريقة في التعبير عن ارتياحها لعودتي. وحين زغردت أمي من جديد وهاهت وتتابعت زغاريدها وأطربتني مهاهاتها المبتكرة، لم يتبق لعبارتها هذه أي أثر.

كانت تلك زغاريد بهجة ومهاهاة تنبثق عباراتها من حبيس اللوعة، وكانت إعلاناً ينبئ الداني والقاصي، المحبّ والمبغض، الغابط والحاسد، أن الولد الذي طال غيابه قد رجع. ولا شك في أن الحيّ التقط الإعلان وانداح النبأ منه إلى كل مكان في غزة. فقد اكتظت الدار بالوافدين للتهنئة بسلامة وصولي، واختلط الجيران والأصحاب والأقرباء، نساؤهم ورجالهم وكتائب أطفالهم. فهل يمكن ألا يغسل هذا الاستقبال القلب.

•

كانت لمى ابنتي وزوجها عَديّ بين أوائل الوافدين فاتضح أنهما يسكنان في شقة قريبة. وما أسرع ما تفاهمت وإياهما، فإذا كان من المنطقي أن

أقيم معهما في شقتهما فإني آثرت أن أبقى حيث تقيم أمي، أن أشعر الأم بأنها هي أخصّ من يخصونني وأعلاهم منزلة. وتقبّل كل من لمى وعدي الأمر بتفهم هو، في أي حال، التفهم الذي ألفت أن أحظى به منهما على الدوام.

وعندما جاء رباح الذي بحثت زوجته عنه ولم تعثر عليه إلا بعد وصولي، وأُخذت أنا الذي لم أره منذ عشرين سنة بالشبه الشديد بيني وبينه. كان الشبه قائما بالطبع عندما التقينا، رباح ومحمد أخي الثاني لأمي وأنا، في القاهرة، في السبعينات، لكن فارق السن ميزنا آنذاك بأكثر مما أظهر الشبه الذي بيننا. أما بعد هذه السنوات، بعد أن تجاوز رباح منتصف عقده الخامس، فقد صار يُشبهني حتى لكأنه توأمي. وأُخذ رباح بما أُخذت أنا به، فتجمدت حركته للحظات قبل أن تطلقها الأشواق عناقاً وتحايا. وفيما نحن متعانقان، أطلقت أمي زغرودة مديدة وارتجلت مهاهاة وعاودت دورانها الراقص. ولقد خشيت أن يغمى على أمي فهممت بإيقافها، غير أن زوجة رباح سبقتني إلى حماتها ثم أخذت تطمئنني.

- لا تقلق، هو التأثر، غيابك طال، وأنت تعرف قلب الأم.

زوجة رباح اسمها نورا، وهو اسم يليق حقاً بطلاقة محيا الغزّاوية المليحة التي تزوّجت لاجئاً درس الطب في القاهرة كما يليق بالبِشْرِ الذي تبثّه أقوالها وحركاتها. ولم أكن قد التقيت زوجة أخي هذه من قبل،

لكن رباح كان قد أراني صورتها ونحن في القاهرة حين كانا خطيبين. أما معرفتي بها فنشأت عبر المكالمات الهاتفية، هي التي كانت في الغالب أول من يردّ على الهاتف. وقد قادت نورا حماتها التي بدت على وفاق تام معها إلى صالة الجلوس وهيأت لها قعدة مريحة. واستكانت أمي دون أن تفقد يقظتها. وعلى كثرة الذين وفدوا للتحية من النساء والرجال وتنوع أعمارهم ومراتبهم، ظلت أمي هي مركز الجمع وسيّدته. ولي أن أشهد بأن إخوة رباح لأبيه، هؤلاء الذين أعدّ نفسي أخاً لهم، عاملوا أمي، هم وزوجاتهم وأبناؤهم وكل من يلوذ بهم، كأنها الملكة المتوجة عليهم بإرادتهم. وأشهد أيضاً بأن أمي بدت حريصة كل الحرص على أن تتمتع بحقوق ملكة.

- أخونا متعب وهو بحاجة إلى الراحة.

كنا قد اقتربنا من منتصف الليل فاضطر رباح التائق إلى الانفراد بي إلى أن يصرف الحشد. ولم أعترض، فقد كنت متعباً حقاً ومحتاجاً إلى الرّاحة حتى وأنا متوتر وغير قادر على الاستسلام إلى النوم. وما أن غادرنا الزوّار حتى اعتذر كل من لمى وعدي لأن عليهما أن ينهضا إلى العمل باكراً ومثلهما اعتذرت نورا المنهكة حدّ التهالك. وبقينا في الصالة ثلاثة، أمي ورباح وأنا. وحضر كأسان أعدهما رباح دون أن يستأذنني. ولأني أعرف أن أمي متدينة فقد استغربت أن يدعوني رباح إلى الشرب وهي حاضرة، أنا الذي تجنّبت في كل مرّة زارتني فيها أن أشرب أو يشرب أي من أصحابي في حضورها.

- أعرف أنك قليل دين مثل أخيك هذا، إخوته هنا كلهم متدينون. كنت به والآن جئت أنت، كنت بواحد فصرت باثنين، أرجو أن لا يعذّبني الله بجريرة أولادي.

لم يكن في النبرة زجر، وما أكثر ما تُسامح الأم أبناءها!

- أمّنا تؤدي الفرائض والنوافل، تصوم عن نفسها وعنّا، وإذا غفر الله لنا فبشفاعتها، أليس كذلك يا أمّي؟

استثمر رباح تسامح أمّنا. وراق الحديث، وانداح في شتى المدارات الحميمة.

- ألن تتزوج؟

يبدو أن السؤال راود أمي طويلاً، ولعلّها خشيت أن تبعدنا أحاديثنا عنه فألقته هكذا، بغير مقدّمات. ولأن السؤال فاجأني، فاجأني من وجوه عدة في واقع الأمر، فإني لم أجب عليه فوراً.

- وكّل أمرك لي، ولك أن أزوجك أحلى بنات البلد!

لا تقرّ أمي بأن الولد كبر، ولعلّها معذورة أكثر من أي أم، فهي لم ترني أكبر أمامها.

- هل تريدين أن أطلّق زوجتي، ألا يكفي أنّ في سجلّي ثلاث طلاقات . . .

- أنا لم أرك بعد أن قلت لي إنك تزوجت في فيينا، ولم أر زوجة. ظننت أنك قلت ما قلته لترضيني وتسكت لساني، ثم إنها أجنبية، هذه التي قلت إنك تزوجتها، فهل ستجيء الأجنبية إلى هذا البلاء الذي نحن فيه.

ما كان أحذق هذه الأم! استدرجتني في هذا النحو إلى الخوض في ما يشغل بالها. إني ابنها، وما أتمتع به من ذكاء ليس سوى نصيبي من ذكائها. شاءت التي كابدت غيابي الطويل عنها أن تتيقن من نواياي، هل جاء الولد إلى غزّة من أجل الزيارة أو من أجل الإقامة، وكانت تواقة بالطبع إلى أن أبقى. فهل كان بإمكاني، أنا الذي يملك غيري قرار إبقائي في وطني أو ترحيلي عنه، أن أعِدَ أمي في تلك الليلة بشيء.

في الصباح، قبل أن تكتظ الدار بالوافدين للتحية، هتفت للدكتور رمزي الخوري، هذا الذي كان في المنفى مديراً لمكتب الأخ القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية وصار في غزّة المدير العام لمكتب سيادة الرئيس. بكّرت في الاتصال لأني أعرف أن صاحب اللقبين كليهما لا يحضر إلى مكتبه مبكراً. وبهذا تجنبت أن أطلب التحدث مع القائد الذي سيحرجني أن يستجيب لطلبي كما سيحرجني أن يرفضه. وأظهر ردّ د. رمزي أني لم أفاجئه.

- عرف سيادة الرئيس أنك وصلت. فمتى ستجيء إليه؟

ووشت نبرة الصوت والترحيب المحسوب بأن لدى مكتب الرئيس تعليمات بشأني وهي إيجابية.

- الأخ أبو عمار كثير الانشغال، آخذ هذا في اعتباري، وأنا في كلّ حال بين أهلي هنا وعددهم كبير، ولست مستعجلاً.

اتبعت ما رسمته. فقد عزمت على أن أتفحّص الأوضاع قبل أن ألقى عرفات ولا أكتفي بما سمعته عنها. وأردت أن أحدّد خطوتي التالية، التي قد تصير الأخيرة وأنا واثق بما أفعله، فأذهب إلى الذي سأناقش الأمر معه وقد حدّدت بالضبط ما سأطلبه منه. وحين نبهني د. رمزي إلى ما تقضي به اللياقة، تملّصت.

- أريد أن أروي شوقي إلى أهلي، تعرف، ست وأربعون سنة، بل هي سبع وأربعون، وأقارب بالمئات، بل هم ألوف. ولن استغلّ وقت القائد من أجل لقاء مجاملة، سأسلّم عليه عندما أجيء إلى لقاء العمل.

ولكي ألغي احتمال تبديل ما اعتزمته، انتقلت إلى نقطة أخرى.

- لا تنس الشرط! أنت...

- عندما تحزم أمرك، هاتفني، وستحصل على الموعد في اليوم ذاته أو اليوم الذي يليه، وستكون الخلوة التي طلبتها، راعِ فقط أن يكون سيادة الرئيس في البلد!

وفي المساء، حين خلت الدّار من الزوّار، حرص رباح على استقصاء ما أنوي عمله، فشرحت له ما اعتزمته. وبسط رباح رأيه، أخوه أنا، قال، وأنا عزيز عليه، أكّد، لكنه في السياسة يفصل بين الشخصي والعام.

- تصرفك صحيح مائة في المائة. لا يجوز أن تظهر بمظهر المتهالك على الالتقاء به، أنت محتاج إليه، وهذا مفهوم والدوافع إليه مشروعة. لكنه هو الآخر محتاج إليك، ووساطة الدكتور أسعد عبد الرحمن ما كانت لتنجح لو لم يكن عرفات بحاجة إلى أمثالك.

كنّا، رباح وأنا، متفقين في هذه النقطة. فاتفاق أوسلو المثير للجدل دفع عرفات في طريق أبعده عن كثيرين من الذين أعانوه قبل أوسلو في أصعب الظروف. وفي عزلته، أحاط بالرجل أشخاص وزمر تكتنف كثيرين منهم الشُبهات وتسوطهم الألسنة، وهو محتاج إلى الذين لا يحرجه وجودهم حوله.

ولقد كنت عازماً على استثمار هذا الظرف بأتمّ وجه، دون أن أهدر كرامتي. وهذا هو ما أغفى رباح وأنا ما أزال أشرحه له: استثمار الظرف دون إهدار الكرامة.

٤

عاملني إخوة رباح لأبيه بوصفي أخاً لهم. وأصرّ الحاج عمر كبير الإخوة على أن يكون ديوان آل مهنا، الديوان الذي هو سيّده، المكان الذي أتلقى فيه القادمين لتهنئتي وتهنئتهم بعودتي. هذه الأريحيّة غمرتني بفيض العواطف العائليّة التي كدت أنساها، إلا أنها سببّت لي حرجاً لعلّ الحاج عمر المدفوع بأريحيته لم ينتبه له. فأنا حورانيّ، ولئن لم يبق في غزّة من آل الحوراني إلا قليلون فإن هؤلاء حرصوا على أنزل في ضيافتهم وليس في ضيافة العائلة الأخرى.

وفي أمسيتي الأولى في ديوان آل مهنّا، توافد ناس من أصناف شتى، أمّا الحورانيون فلم يجيء منهم أحد. وفي انشغالي بزحام الزوار، لم

أنتبه إلى مغزى غياب أقربائي أنا الذي كفّ منذ زمن طويل عن الانتباه إلى ما تقتضيه العلاقات التقليديّة. غير أن أمر هذه العلاقات جبهني في المساء التالي. فقد جاء إلى الديوان ثلاثة حورانيين بدا أن العائلة انتقتهم من أقرب الأقرباء إليّ. دخل هؤلاء بسحن غاضبة، وحيّوا مضيفيّ باقتضاب، وجلسوا بجانبي لوقت قصير. وقال قائل هؤلاء لي هامساً إنهم أوفدوا ليبلغوا إليّ رأي العائلة: عليّ أن أنزل في ضيافة عائلتي وليس في ضيافة عائلة أخرى، وقد هيئ لي منزل لأستخدمه وأنا مطالب بالانتقال إليه.

لم أبرح منزل رباح، لم أفترق عن أمي. ولم أستبدل الديوان الذي يتصدّره الحاجّ عمر بأي ديوان. ولم أوثر بهذا عائلة على أخرى، وكل ما في الأمر أني لم أجد من اللائق تبديل ما بدأت به. وللحورانيين، كما لأيّ ناس غيرهم، أن يعرفوا أني أرفض الإنصياع للأعراف العشائرية، خصوصاً الأعراف التي لا لزوم لها.

ويبدو أن أقربائي ناقشوا الأمر في ما بينهم وانتهوا إلى القبول بي كما أنا: الولد الذي قد يكون شاذاً عن التقاليد لكنه واحد منهم. وحين جاء موفدو العائلة من جديد ودعوني إلى وليمة يقيمها الحورانيون احتفالاً بعودتي، رحبت بالدعوة وغضضت النظر عن مخالفتهم تقليدين لا يخالفهما إلا مغاضب: أنهم دعوني دون أن يستأذنوا مضيفيّ، وأنّهم أغفلوا دعوة هؤلاء المضيفين إلى الوليمة معي. أغفلت المخالفة لأني لا يمكن أن أكون ضد التقاليد العشائرية في حال وأن أتشبّث بها في حال آخر، وما دام الحورانيون قد تسامحوا بالرغم من مخالفتي تقاليد يهتمون

بها فلماذا لا أسامحهم إن خالفوا ما لا أهتم به .

مع لمى، ابنتي، وعَـديّ، زوجها، لم تـنشأ أي مشكلة لا بشأن مكان إقامتي ولا بشأن أي أمر آخر. فهما، مثلي، يغلـّبان دواعي المنطق على دواعي أيّ تقاليد. التقت لمى وعـَديّ في براغ بعد أن وفد كلاهما إليها من أجل الدراسة. قدمت لمى إلى عاصمة التشيك من دمشق حيث كنّا نقيم. وقدم عديّ من نابلس حيث كان مقيما مع أسرته اللاجئة إلى المدينة الضفـّاوية من يافا. درست لمى الاقتصاد السياسي، ودرس عدي الهندسة المدنية، وتزوجا فور تخرجهما. ومنذ زواجهما، تقدمت لمى بطلب لـمّ شمل حتى تتمكن من العودة مع زوجها إلى أرض الوطن الذي نشأت، هي المولودة في دمشق، على الحلم بالعودة إليه. واقتضى الأمر انتظار خمس سنوات كابد الاثنان خلالها شتى أنواع المتاعب إلى أن تمت الموافقة على الطلب وأذنت إسرائيل للفلسطيني المقيم في نابلس باصطحاب زوجته إليها. ولمّا تعذّر أن يجد الاثنان كلاهما عملاً في نابلس أو في أي مدينة في الضفّة فقد اجتذبهما رباح إلى غزّة وشجعهما وجود أمي فيها وتوفـّر فرصة العمل لهما كليهما. وقد تصادف قدوم الشابين إلى غزة مع عودة الذين رجعوا إليها بموجب اتفاق أوسلو. وكان الاثنان بالطبع توّاقين إلى أن أعود أنا الآخر. وكان من المفروض أن أحلّ بمنزل ابنيّ هذين لولا إيثاري أن أبقى بجانب أمي، لكني ظللت التقيهما كل يوم واستنير بما يشيران عليّ به، خصوصاً حين يتعلـّق الأمر باللياقات الاجتماعية التي طوقتـني متطلباتها.

والواقع أني استهلكت وقتاً طويلاً في استقبال الوافدين للتحية أو

التعارف أو تجديد التعارف وفي تلبية الدعوات إلى الولائم. وقد خصصت وقتاً، أو قولوا: إني اقتطعت هذا الوقت من أوقات الواجبات الاجتماعية للتعرف على البلد أو تجديد معرفتي به ودراسة الأحوال العامّة. أما أمي فظل لها بواكير الأصباح وأواخر الأماسي.

غزّة التي أقمت فيها طفلاً بين ١٩٤٨ و١٩٤٩، غزّة التي استقرت في ذاكرتي، لم أقع في ما رجعت إليه إلا على القليل منها، حتى ليمكن القول إن ما رجعت إليه كان غزّة أخرى. البحر وحده ظل هو البحر وما عداه تبدّل، العتيق القليل المطابق لما هو باق في ذاكرتي تهرّأ، والجديد الكثير لم يعد جديداً بعد أن جار عليه الإهمال. وبساط الرمال الذي كان يفصل بين بحر غزّة وبين عمائرها اختفى، أخفته العمائر التي تكدّست فوقه بغير رونق.

بحثت عن أشيائي التي تختزنها ذاكرة الطفل. لم أهتد إلى المدرسة التي أتممت فيها صفّي الثالث الابتدائي. لم أجد محطة القطارات التي شهدت عبثي مع أقراني والتي كانت آخر ما شاهدته في غزّة حين حملني قطارها إلى خارج الوطن. لم أجد الحرش الذي كان في أيامي بعيداً عن العمار وكنا نمشي إليه من أعلى زقاق المنطار في حيّ الشجاعيّة ساعةً في الذهاب وساعة في الإياب كي نجلب أوراقه الجافة لأسرنا، وقود تلك الأيام المجاني. والشاطئ الذي كنّا نجيء إليه من أجل السباحة أو التفرّج على صيّادي السمك لم يَعُد خالياً وأنيقاً كما كان، بل نبتت فوق رماله معسكرات قبيحة أنشأها الاحتلال، وفنادق، ومطاعم متماثلة الطراز، وأندية لم يُعْنَ منشئوها بأن تلائم طرزها البيئة الفاتنة التي أنشئت فيها.

وحال الناس تبدّل هو الآخر، تبدّلت أزياؤهم أو قولوا إنها اختلطت حتى لم يبق مما يميّزها إلا هذا الاختلاط. وتبدّلت الأطباع، وعلاقات الناس بعضهم ببعض، وحواراتهم التي فتك إزمان التوتر بسلاستها.

وتساءلت: هل سآلف غزّة التي أراها، أنا الذي تختزن ذاكرته غزّة غيرها؟

رافقني مؤنس في بعض جولاتي. ومؤنس هو ابن أخي رباح، الفتى الذي استقبلني عند المعبر. وصار على فتى الانتفاضة الموقوف عن الكفاح بموجب اتفاق أوسلو والذي انضاف إلى بغضه الاحتلال سخطَه على السلطة أن يتدرب على فهم هواجس المشرد العائد من الغربة. قلت لمؤنس وأنا أبحث بين أطلال أشيائي عن ما يعيدها إليّ:

- لك يا ابن أخي غزّة واحدة، أما أنا فلي غزّتان، غزّتك التي نراها كلانا معاً وغزّة التي في ذاكرتي، وهما لا تتطابقان، ويبدو لي أن الوطن الذي رجعت إليه لن يطابق أبداً الوطن الذي حملته في الذاكرة.

وعلى كثرة ما سمع الفتى من غرائب أقوالي كان هذا القول أصعب من أن يدرك معناه، فانطلقت من فمه«كيف؟» متسائلة ومدهوشة. وتبسّطت أنا في الشرح. لقد أنشأنا في الذاكرة وطناً جميلاً وجعلناه أجمل الأوطان، وهذا ما لن يجده أي عائد إلى الوطن الباقي فعلاً. كنت أشرح لمؤنس ولنفسي.

طيلة غربتي، ظللت أهجس بمخاطر ازدواج الشخصية، أنا الذي رأيت

كيف يفتت اللجوء شخصية اللاجئ، وها أنا ذا، وقد رجعت إلى الوطن، أكاد أقع في ازدواجية المكان، وأي مكان، الوطن، المكان الذي طالما تُقتُ إلى أن أنهي فيه غربتي وأتحرر من الهواجس.

- أنتم الكُتّاب!

تجنّب الفتى غير المشغول بهواجسي أن يقرّ بأنه لم يفهم، وتحاشى أن يظهر برمه، فاكتفى بهذا التنويه.

لم أنتقل، إذن، من المنفى إلى الوطن فتنتهي غربتي. بل صار علي كي أنهي الغربة أن أنتقل من وطن الذاكرة الماثل في الروح إلى الوطن الواقعي الماثل أمامي، من الوطن الجميل والمريح والعابق بالوعود، إلى الوطن المهشّم والمعجون بالمشاكل. وصار عليّ أن أنسى المسمِيّة نسياناً تاماً، هي التي لم يعد لها في أيّ حال إلا وجودها في الذاكرة، وأن أقنع نفسي بأن هذا الحيّز الضيّق الذي لا تعرض أوسلو عليّ سواه هو وطني.

لكن، لئن أعوزني في المنفى الإحساس بالولاء لأيّ مكان حللت فيه. فها أنا ذا عاجز، أيضاً، عن الإحساس بالولاء لهذا المكان من وطني الذي رجعت إليه.

هل كنّا في المنفى غرباء عن وطننا الواقعي أو عن الوطن الذي تصورناه؟ يخيل إليّ أن ما تملكنا الحنين الدائم إليه هو الوطن الذي أنشأناه في أرواحنا. أسكنّا وطن الذاكرة في أرواحنا وأسكنّا أرواحنا فيه، وصار

الولاء لأيّ مكان واقعي متعذراً. ولكي ينتهي المنفى علينا أن نحلّ المعضلة، أن ننتقل من وطننا إلى وطننا، أن ننهي ازدواجية الوطن.

هل في المستطاع تحقيق هذا الانتقال، هل في اليد انتزاع وطن الروح من الروح وانتزاع الروح منه وجلبها إلى صلادة الواقع وأثقاله، هل يمكن تحقيق هذا دفعة واحدة، هل في اليد تغييب المسمِيّة والاقتناع بأن الرجوع إلى غزّة عودة إلى الوطن، هل يمكن نقل الروح مع انتقال الجسد والاحتفاظ بها مع ذلك حيّة؟

هذا الوطن المعروض علينا لا يشبه الوطن المستقرّ في الرّوح إلا إذا جاز أن يعتبر الفرع المقطوع من شجرة هو الشجرة ذاتها. حتى هذا الفرع الذي ذوى لكثرة ما ألحق به العدوّ من خراب هل يشبه ذاته حين كان فرعاً عفيّا. وهل يد العجوز هي جسدها كلّه، وهل تشبه هذه اليد يد صاحبتها حين كانت صبيّة. وهؤلاء الناس الذين عتّمت هموم الاحتلال أرواحهم وشوهت أطباعهم وسممت أمزجتهم، هل يشبهون ناس الذاكرة؟

لن يبرح الوطن الجميل ذاكرة أيّ منا. ولن تصير البقايا المهشّمة التي يعرضها أوسلو علينا بديلاً لأي وطن.

- أنتم الكـُتّاب!

نعم، أنا كاتب ولا مجال لإنكار تأثير المهنة. لكن، ارفق بعمِّك يا ابن أخي فهو إنسان أيضاً، والإنسان، وليس الكاتب، هو الذي يبث

شجونه. أما الكاتب فما أشدّ ما روّضه العقل والمروضات الأخرى الكثيرة! ، انقضت عهود منذ كنت في الوطن طفلاً ينطلق على سجيّته. وها أنا ذا قد رجعت بعد أن تبدّل الحال، بعد أن لم يعُد الوطن هو الوطن، ولم يعد الناس هم الناس، ولم أعُدْ أنا ما كنته. ولم يعد معروضاً عليّ إلا هذا الوطن الذي فتك الظلم به ومزّقه أشلاء وفرق ناسَه بعضهم عن بعض وحجب عنه وعنهم فرص التطور. الاحتلال الإسرائيلي وأطماعه وسطوته، والسلطة الفلسطينية وعجزها. الفساد الذي نمّاه المحتل وحماه واستثمر نتائجه لإدامة سطوته، والفساد الذي يلغ فيه الفاسدون من ناس السلطة ومن يلوذون بهم، وكلّ شيء من هذا القبيل. صديد ينزّ. ورائحة تزكم الأنوف. غير أن في هذا الوطن، في هذا الباقي من وطني، أشياء من نوع مختلف وناساً ليسوا من هذا القبيل. في الوطن، على ضيقه وضيق الفرص المتاحة له، ناس، هم معظم ناسه، يسعون إلى رزقهم بالكدّ الشريف إلى جانب الفئة الفاسدة. وفي السلطة مؤسسات عامرة بالنشاط والإنتاج إلى جانب ما هو مخرّب أو مهمل. في الوطن الباقي لنا، هذا الذي لا يُعرض علينا سواه، شرفاء كثيرون أقرأ سخطهم على وجوههم وألمس استعدادهم لتقويم العوج، تماما مثلما أن فيه الذين لا همّ لهم إلا أن تبقى الأمور معوّجة. والصراع حامٍ وأعباؤه ثقيلة، الصراع الذي تعدّدت ميادينه دون أن تقل أعباؤه أو تخفّ أثقاله في أي منها. وإذا وجدتني يا ابن أخي مضطرباً، مضطرب التعبير أو السلوك أو الموقف، فلأن في ذهني سؤالاً يُقلقني، هل أستطيع أنا المشرف على الستّين المسكون بالأدواء المتعب لكثرة ما تطوّحت بين ظروف سيئة وظروف أسوأ أن أقاوم دواعي اليأس وأنمّي دواعي الأمل، هل أقدر على حمل الأثقال وأحمل ما يضاف إليها؟

- هل تلائمك الإقامة في هذا الخراب بعد أن رأيت أجمل بلدان العالم؟

أمي وهواجسها بشأن ما أعتزم فعله، وهي التي سألت، ليس لأنها تؤمن حقاً بأن ما يحيط بها كلّه خراب، بل لأنها شاءت أن تتيقن من أني سأبقى.

أحاطتني المبتهجة بعودتي برعاية مثابرة ويقظة: تصحو مع الفجر، وتؤدي الصلاة الباكرة، وتتلو أورادها، وتطيل الدّعاء وتخصّني بفقرة منه، ثم تصبّر نفسها تصبيراً حتى لا تتعجل إيقاظي أنا الذي يساهرها كلّ ليلة إلى ساعة متأخرة. وحين يغمر ضوء النّهار الدار، أي حين تبلغ الساعة السادسة أو السادسة والنصف، ينفد صبرُ التواقة إلى استئناف الحديث معي، فتستحضر الحكمة التي تربت عليها: نوم الضّحى يقطع الرزق، وتوقظني بها، ثم تجيء بقهوة الصباح إلى سريري وتجلس على حافّة السرير وتشعل سيجارة لي وأخرى لنفسها، وتبثّ أفكارها.

- ما أراه ليس خراباً كلّه. أن تتوفر الرغبة في الإصلاح فهذا، عندي، في حدّ ذاته، عمار.

قلت هذا لأمي كأني أقوله لنفسي. كنت محتاجاً لتقوية عزيمتي بمقدار حاجة أمي إلى إطفاء قلقها. وأدركت أمي مغزى قولي إلا أنها لم تطمئن.

- هل اعتزمت البقاء هنا؟

رجعت إلى غزة في الثالث عشر من تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٩٥، فكان أسبوعان قد انقضيا وأنا فيها أدرس الأحوال كما عزمت منذ البداية لأرسم خطوتي التالية. وهذه المرّة كان رباح هو الذي يسأل فيما نحن في سيارته مع أمّنا عائدين من وليمة غداء أقيمت احتفاء بعودتي في منزل أهل نورا.

- هنا غربة جديدة، لكنها الغربة التي داخل الوطن، وعليّ أن أوازن بين النوعين. ومن السابق للأوان أن أتخذ قراري ما دام أن بقائي أو رحيلي مرهونان لقرار يرسمه غيري.

- متى سترى الرجل، إذن؟

أمي التي تمعنت في وجهي وأنا أنتقي كلمات إجابتي على سؤال رباح هي التي وجّهت هذا السؤال، الأم التي لا تطمئن أبداً تعرف أن قراري مرهون لنتائج لقائي مع ياسر عرفات، وهي تحثني على الذهاب إليه.

- سأراه قريبا، فاطمئني!

كنت قد حزمت أمري على طلب اللقاء، أتممت تقصّي الأوضاع، وتبيّنت الخيارات المتاحة. وما أن بلغت الدار حتى هتفت ل د. رمزي. وما أسرع ما ظفرت بالموعد!

- غدا الثانية عشرة ظهراً.

أمام المدخل الخارجي لمبنى المنتدى الذي اتخذه عرفات مقراً لإدارته، رحب بي ضابط شاب تـنبيء شاراته بأنه من أمن الرئاسة، وقال الضابط وهو حريص على أن يصلني مغزى كلامه بتمامه إن مكتب سيادة الرئيس اتصل به وأخطره بوصولي وكلّفه أن يرحب بي. ثم رافقني هذا الضابط إلى مدخل المبنى. وهناك، كان في الانتظار ضابط أعرفه من مرافقي القائد العام القدماء. وقد استقبلني هذا فارداً ذراعيه مشهراً مودّته الشخصية من طيّات المهمة الموكولة إليه، وهو الذي صحبني إلى الطابق الأعلى. ذراعا د. رمزي اللذان ينفردان وينطويان بحساب وترحيبه، وأذرُعُ آخرين علموا بوصولي وهرعوا للتحية، وقهوة، ثم دقّات الساعة منتصف النّهار. لحظتها، جاء ضابط مراسم على كل من كتفيه ثلاث نجمات واقتادني قبل أن أتم شرب القهوة ومضى بي حتى بلغ باباً طرقه طرقة خفيفة ثم فتحه بمفتاح معه وأدخلني ودخل معي. وبهذا صِرنا في حجرة عمل بإسم عرفات. فَوقف ضابط المراسم وقفة استعداد وهتف باسمي، كما يفعل حاجب البلاط، وأضفى عليّ صفة الأخ، فصرت الأخ فيصل حوراني.

لا أدري لماذا تصوّرت للحظة أني في فيلم سينمائي وأن هؤلاء الذين تلقّوني هنا ممثلون. كان ما رأيته جديداً عليّ في جوّنا وفي أي جوّ خبرته بنفسي، وكان، خصوصاً، مغايراً للبساطة التي ألفتها في مقرات عرفات العديدة، أنا الذي تعرفت عليه في سورية في العام ١٩٦٤، أي حين لم يكن له أي مقرّ، ثم لقيته مراراً في مقرّاته المتعاقبة، في دمشق وعمّان والقاهرة وبيروت وتونس. وكان هذا الجديد مصطنعاً حتى ليصعب أن

تقرّ بأنه واقعي. وكان الاصطناع رديئاً. ولكي لا أستغرق في هذا الذي لا أهمية كبيرة له، فكرت: صاروا سلطة، وللسلطة طقوسها، أرضتك أم لم ترضك.

وما دخلته كان قاعة توزعت أرجاءها قطع أثاث متنوعة الاستخدام. وقد وقع نظري على ياسر عرفات قابعاً وراء مكتب في صدر القاعة بجوار نافذة عريضة يُرى عبرها مشهد البحر. وكان عرفات منصرفاً إلى كومة أوراق أمامه وبيده قلمه الذي يوقّع به على كلّ ورقة، تماماً كما وُصف حاله لي. وقبل أن ينسحب ذو النجمات الثلاث، وقبل أن أبلغ أنا ركنه، وضع عرفات القلم على المكتب ونحّى نظارة القراءة عن وجهه بحركة متأنيّة، ثم وجّه نظره نحوي وقال وهو ينهض لاستقبالي وفي صوته نبرة عاتبة:

- تأخرت عليّ يا فيصل.

لكم أعرفه! هو، إذن، لم يتبدل، فها هو ذا الذي أخّر وصولي إليه قرابة سنتين يعاتبني لأني تأخرت ويكاد يحمّلني المسؤولية. إنه الرجل لا يحرجه شيء لكنه يتفنن في إحراج الآخرين.

- المسؤولية على من أخّرني.

لم أقل هذا لأرد على العتاب بعتاب، بل لأذكّر القائد الذي يعرفني بأني أنا الآخر لم أتبدل وما زلت من الذين يتعذر إحراجهم بالباطل.

والتقط هو المغزى من دون شك، ولم يواصل العتاب. وكنت قد بلغت موقفه فمددت يدي. فأمسك هو اليد وجذبني إليه.

- بالحضن، أنا مشتاق لك.

استقباله إيّاي في الموعد هو الذي قلما يلزم نفسه مواعيد محددة، وطقوس الاستقبال التي لم أشكّ في أنّه هو راسمها، والكف عن الإنشغال بالأوراق، والمبادرة إلى العناق، هذه بداية طيبة، ولن يصعب، إذن، التفاهم.

- هل ترى كم هي جميلة غزّة.

قال عرفات هذا وهو يعود إلى الجلوس ويشير إلى البحر دون أن يحوّل نظره عنّي. ولأن الافتتان بجمال الطبيعة ليس من سمات هذا الرجل، ولأني لم أظن أنه يعدُّ جمال غزّة من منجزاته فيجتذب انتباهي إلى شيء أنجزه، فقد استخلصت أنه كان يبحث عن مدخل ملائم لحديث توجس هو الذي يعرف حدّة طبعي حين أؤذى أن يكون شاقاً.

- البحر جميل في كل مكان.

لم أشأ أن أنكر أن لبحر غزّة جماله الخاصّ به، بل شئت أن أؤكد على أني لست ممن يؤخذون بمناورات الكلام. لقد جئت من أجل موضوع بعينه وأنا راغب في أن أستثمر الوقت في الحديث عنه. ويبدو أن البارع

في قراءة أفكار المتصلين به قد استخلص ما وراء عبارتي بتمامه. فقد تنّحت النبرة المستكشفة وحلّت محلها نبرة عملية وحازمة، نبرة قائد.

– ماذا نويت أن تفعل؟

إنه القائد المعتاد على معالجة المشاكل، وها هو ذا قد أعلن استعداده لمعالجة مشكلتي.

– طلبت الخلوة لأتمكن من التحدّث بحريّة.
– تعرف أن صدري مفتوح لك.

كان هذا إذناً بالدخول في الموضوع، فأطلقت كلامي دون تحفظ. قلت لمن أعلن أن صدره مفتوح إن استقباله الودّي قد سحب من صدري الغلّ الذي ملأه فلم أعد بعد مغلولاً، إلا أن لدي بعض كلمات أريد أن يسمعها لكي نطوي الموضوع الذي أسخطني برمته. قلت للذي أصغى دون إستياء إني ختمت السادسة والخمسين وشرعت في السابعة والخمسين وأنا لا أملك مما يتنافس المحيطون به على امتلاكه لا قليلاً ولا كثيراً. قلت إن ما أملكه بالفعل، كل ما أملكه، هو حقيبة ملابس متوسطة الحجم وحقيبة أوراق ومكتبة ليست كبيرة. قلت إن أجدَّ قطعة في ملابسي هي التي اشتريتها قبل سنتين ونصف سنة، أي قبل أن يوقف هو صرف راتبي وإني لم أضف إلى مكتبتي طيلة هذه المدّة إلا ما أهديَ إليّ إهداء.
– هل أنا كسول، هل أنا مغفل، هل قال لك أحدٌ عنّي إني غاوي طهارة من أجل الطهارة.

- إذن، فلتعلم أن تعففي هو عندي سلاح أتسلح به لأصون حقي في أن أفكر بحرية وأكتب ما استخلصه، فلا يمون عليّ أحد بما يخالف قناعتي، ولا تفلح أيُّ ضغوط يصبُّها أيما أحد عليّ.

وذكّرت الذي لم يقاطعني بأني اجتزت معه المسيرة كلها، منذ جاء إلى دمشق إثر تولي البعثيين السلطة فيها في العام ١٩٦٣ ليبحث عن نقطة ارتكاز لـ«فتح» في بلد مجاور لفلسطين إلى أن طُرد من دمشق في العام ١٩٨٣ بعد التّمرد الذي نهض في وجهه داخل «فتح» واحتضان البعثيين المتمردين. وذكّرته بأني انحزت إلى صفـّه ضد المنشقين عليه بالرغم من أن معظم هؤلاء كان من أصحابي، كما ذكّرته بأن التهديدات التي تعرّضت لها بسبب ذلك، ويضمنها التهديد بالقتل، لم ترهبني. وقلت للذي هزّ رأسه إقراراً بأنه لم ينس وقفتي تلك وما تعرضت له بسببها إني وقفت معه في كلّ مرة اقتنعت فيها بأنه على صواب تماما مثلما وقفت ضدّه في أي مرة رأيت فيها أنه على خطأ. وبلغت بيت قصيدي حين قلت مشدّداً كل كلمة إني لم أطلب منه أجراً حين وقفت معه، ولم أخش سخطه عليّ حين وقفت ضدّه، وقد مارست في الحالتين حرّيّة التعبير التي أعتز بأني لم أفرط بها أبداً.

- عندي، إذن، ما أملكه ويسعدني أنه أعظم من كل ما يتهافت عليه معظم المحيطين بك هذه الأيام. إني أملك استقلال الرّأي، والقدرة على التفكير الحرّ، وملكة التعبير، والجرأة على الجهر بقناعتي. ولا أنوي أن أفرّط بهذا الذي أملكه حتى لو صارت حياتي ذاتها هي المهدّدة.

- هذا حقك .

كان هذا هو أول ما فاه به ياسر عرفات منذ بدأت البوح بمخزوني . وقد نمّ جرس صوته عن ميل إلى استرضائي . وبدا لي أن كلامي ترك في نفس الرجل أثراً طيباً ، وصرت أنا الآخر مستعداً لاسترضائه .

- لا أنسى أنك حميتني في كل مرة تطاول علي فيها أي من الذين يلوذون بك ، حميتني فيما أنا أهاجم سياستك . وأنا لا أنسى أني هاجمتك بضراوة ، ليس مرة واحدة بل مرات ، وأثار هجومي عليك سخط بعض المؤيدين لك ، فحاولوا إيذائي ، بل آذوني فعلاً وهم يظنّون أن هذا يرضيك ، لكنك ، أنت وليس أحد سواك ، أنت الذي رفع عني أذى مؤيديه وثبّت حقي في الاختلاف معه . كان هذا شأنك قبل اتفاق أوسلو ، فما الذي تبدّل بعد الاتفاق ، ومن الذي تبدّل ، أنا لم أتبدّل .

استحضرت أمثلة من الوقائع التي ألمحت إليها . ذكرت حمايته لي منذ ١٩٦٧ ، أي منذ رحت أجهر بالدعوة إلى القبول بتسوية سياسية مع إسرائيل في ضوء القرار ٢٤٢ حين كان هو ذاته ضدّ هذا القرار . حمايته لي حين تحالف من تحالفوا ضدي في العام ١٩٧٧ في موسكو لتدمير مكانتي في م . ت . ف . والإساءة إلى سمعتي الشخصية . حمايته لي وأنا أهاجمه في زاوية أسبوعية في مجلة فلسطينية على مدى أربع سنوات متصلات ، منذ التوقيع على اتفاق عمان الشهير في العام ١٩٨٤ إلى سقوط هذا الاتفاق في العام ١٩٨٨ ، وما فعله حين رفع عني أذى المدير العام لمركز الأبحاث الموالي له الذي أوقفني عن العمل بسبب هجومي عليه . واستحضرت ما قاله لهذا المدير الذي كرّر العقوبة بعد أن ظنّ أن

إمعاني في الهجوم أسخطه: «فيصل يهاجمني أنا فما دخلك أنت!».
وفي استحضاري هذه الوقائع، استحضرت الأجواء التي رافقَتْها واجتذبت المصغي إليّ إلى استعادة الأيّام الخوالي، أيام الكفاح الثوري وأمجادها، أيام التعددية ومكاسبها. وذكرت كيف كان هو بالرغم من كثرة الذين ينتقدونه أخاً للجميع، الأخ الذي يلجأ إليه معارضوه قبل مؤيّديه.

و لما لاحظت أن حديثي يؤدي غرضه، فقد أمعنت فيه، ووصلت إلى المقارنة بين تلك الأيّام وبين أيّامه هذه. قلت إنكم عقدتم اتفاق أوسلو في الخفاء، لم تشاوروا حتى حلفاء الخندق الواحد، وأبرمتموه بالتحايل على أنظمة الهيئات الفلسطينية المخوّلة بإبرامه. قلت إن إسرائيل استدرجتكم إلى مصيدة، هكذا رأيت أنا الحال منذ البداية، نصب العدوّ مصيدته في قاع هوة واستدرج قيادة منظمة التحرير الفلسطينية إليها. قلت إني أعرف أنكم أضمرتم النيّة على تخطّي الهوة وأثق بأن لديك أنت بالذات الجسارة. لكن العدوّ كبّل حركتكم حين دفع مفاوضه الفلسطيني إلى القبول بأن يجري الحلّ على مرحلتين حدود كل منهما فضفاضة ومعظم بنودها غامض. قلت إن أجسر الناس وأشدّهم عزماً وأصفاهم رؤية لا يستطيع أن يأتي المستحيل، ومن المستحيل تخطي أي هوة في قفزتين. وقلت لمن خالطت تعابيره مسحة أسى راح يُغالبها إن ضيقي اشتدّ وأنا أراهم يفاوضون حتى الآن بالأسلوب ذاته، حتى بعد أن ألقت بهم قفزتهم الأولى في المصيدة. وفي ختام المكاشفة، قلت إن كنتم أنتم مراهنين على تبديل الحال أو كان ما يزال لديكم أمل فإني أنا عاجز عن مجاراتكم في الرهان على أوسلو، فهل كثير منّي أن أنتقد.

– لك حق الانتقاد، كان هذا لك سابقا، ويظل لك لاحقا.

– نلت حقي منك أنت الكبير، فماذا عن الصغار، صغار النفوس والعقول محترفي إشغال القادة بالنمائم...

– تسلّ بنمائمهم! حين أقرر أنا...، أنت تعرف، ألست أنت ممن يتهمونني بالتفرد. أم أنك بدّلت رأيك. إني أنا الذي...

قال العبارة الأخيرة بنبرة فكهة ولم يُكملها، بل استعاد النبرة الجادة.

– إبق هنا! إن استطعنا أن نقنعك فهذا مكسب وإن لم تقتنع فسننتفع بملاحظاتك، وهذا، أيضا، مكسب.

نلت من ياسر عرفات في هذا اللقاء أكثر مما توقعت. ولكم أن تعرفوا أن غُلّي الشخصي غاص. أما ما لم يغص أو يتبدّل فهو رأيي في السياسة التي ينتهجها من صار حقّا القائد المتفرد، السياسة التي أفضت إلى مصيدة أوسلو. على الصعيد الشخصي، رضيت وراق مزاجي. أما على الصعيد العام، فقد تفاقم لديّ الإحساس بعجزي عن التجانس مع سياسة القيادة أو إيجاد هوامش مشتركة معها تعيدني إلى وضعي السابق: الكاتب اللصيق بالقيادة الذي يؤيد أشياء وينتقد أخرى. ومع هذا، وبالرغم منه، عليّ أن أقر بأن إصغاء عرفات إلى ما بُحت به دون أن يبدو عليه أيّ استياء قد جذب انتباهي. وأنا حين شرعت في المكاشفة راهنت على شيء، على لحظة يتـّقد فيها الألق العتيق. ويبدو أني كسبت هذا الرهان. وقد تذكّرت ما نبهني رباح إليه حين قال إن عرفات صار محتاجاً لأمثالي.

ويبدو أن القائد الذي تواضع وقال إن في بقائي مكسبا قد صدر في هذا القول الذي عرفت أنه قال مثله عنّي لغيري من فشل تجربته في تطويع المعارضة. وبعد أن استلّ غلّي الشخصي، وحتى لو أسرفت في الانتقاد في المستقبل، فسيظل بإمكان القائد أن يقدّم حالتي دليلا على سعة صدره، ألا يُعلن هو دائماً أنه مع التعددية وإن صدره مفتوح للنقد. وإذن، فقد كادت تكون مقايضة، مُقايضة نافعة لطرفيها، هذه النتيجة التي توّصلت إليها. وقد حانت اللحظة الملائمة لجلاء شروط هذا المقايضة.

– شيء واحد أطلبه منك: أن لا تشترك في أي تآمر على قيادة شعبك الشرعية. إن التزمت هذا الشرط، إن لم تتفلّت كما تفلّتَّ مما التزمته أمامي في تونس، فلن أسمح لأحد بأن يؤذيك.

هل كان يقرأ أفكاري فشاء أن يسهّل إتمام المقايضة؟ لقد تمّ الاتفاق بأعجل كثيراً مما توقعت وأيسر: حريتي في الكتابة مقابل الامتناع عن أي نشاط يستهدف مكانته. فهل كان بالإمكان الظفر بما هو أفضل في الظرف الذي تعرفونه.

بعد تسوية ما هو جوهري، سوّينا المسائل الشخصية العالقة. طلبت أن يأمر هو بصرف رواتبي الموقوفة، فقال إن صرفها يحتاج إلى إجراءات. فأدركت أن الذي لا يفتنه الالتزام الكلامي وحده بحاجة إلى أن يتيقن من أني لن أحيد عما التزمته. وفي الجوّ الذي نشأ عن المكاشفة، لم أجدني مستاء.

- أعرف الإجراءات. لكني محتاج لمبلغ أسدّد به ديونا يذلّني عدم الوفاء بها.

فطلب مني أن أكتب طلب سلفة على رصيد الرواتب، ومدّ إليّ ورقة، فكتبت الطلب، ودفعت الورقة نحوه، فكتب هو حاشية على الورقة ذاتها وأعادها إليّ دون أن يقول شيئاً. ووجدت أن من غير اللائق أن أقرأ الحاشية، فوضعت الورقة في جيبي دون أن أقرأها. وعندها، علّق هو.

- بقية رواتبك ستحصل عليها فور استكمال الإجراءات.

قال هذا وكتب شيئا على ورقة وأبقاها أمامه. فقدمت طلبي التالي.
- إذن الإقامة الدائمة، الإذن الذي تطلبونه من إسرائيل حسب الاتفاق، هذا الذي يسمّونه الرقم الوطني...
- ستحصل عليه.

فاه بالوعد، وكتب شيئا على ورقة أخرى.

- بحصولك على الرقم الوطني ينتهي وضعك الوظيفي في الخارج. ولا بدّ من تحديد وضع جديد لك هنا.

أرجأت الحديث عن هذه النقطة لأنها حسّاسة، وها هو ذا قد فتح الحديث. جئت إلى القائد دون أن أحسم هذه النقطة بالذات، ذلك أن حسمها كان مرهونا لحسم غيرها. ثم إنني لم أكن متحمساً لشغل وظيفة

في سلطة عارضت أنا الاتفاق الذي أنشأها، ناهيك بأن نقلي من الخارج يهبط براتبي إلى ما دون نصفه. لكني كنت مدركاً أن لا بدّ مما ليس منه بدّ.

- ما الموقع الذي ترغب فيه؟

كان في مبادرته هو إلى عرض وظيفة وتركه حريّة الاختيار لي تكريماً، لكن التكريم انطوى على إحراج لي.

- هل عليّ أنا أن أحدد الموقع؟
- لك أن تتبع ما أتحته لزملائك، تختار ثلاثة مواقع أعيّنك لواحد منها، حسب المتيّسر.

لحظتها، حضرتني سخرية أمّي.
- قالت أمي لي إنّي تأخرت فلم يبق منصب أشغله أو شيء أسرقه.

قلت هذا في نحو يبدو معه فكاهة. غير أن ياسر عرفات بقي جاداً.

- الصحيح أنك تأخرت فعلاً. لكن مكانتك عندي محفوظة.
- ما دام الخيار متروكاً لي فإني أختار التقاعد حتى أتمكن من الاستمرار في الكتابة.

كنت أعلم أني أطلب ما ليس في يده تلبيته. فالعائدون مستجدّون،

وصندوق التقاعد يخدم الموظفين القدماء، ولا مجال لأن يحصل المستجدّ على تقاعد. وهذا هو ما شرحه القائد الذي ظن أني أجهله. لكني حين طلبت ما ليس باليد كنت أمهّد السبيل لطلب في يده الاستجابة له.

- نحدّد لك موقعا لا يلزمك مسؤولية وظيفيّة فتستفيد من وقتك كما تشاء، كما كنت منذ فرّغناك للكتابة.

ما أسرع ما قرأ أفكاري ووجد الحل ووجهني إليه، تماماً كما فعل في العام ١٩٨٩ حين طلبت أن أُعفى من مسؤولية الوظيفة وأتفرغ للكتابة فأعَدّ هو الترتيب الذي ابتكره مما يبيحه نظام م. ت. ف.

- أودّ أن أسمّى في هيئة مستشاريك، مستشاراً بغير وظيفة، فلا يكون لي رئيس غيرك ولا مرؤوسون.

استمع إلى رغبتي، وخطّ سطوراً على ورقة جديدة، ثم ضغط على زرّ، فهرع إليه ذو النجمات الثلاث، وحمل هذا الأوراق ومضى بها.

سوّينا ما كان عالقاً. وبقي في الجعبة ما أود أن يسمعه هو مني بشأن عدد من القضايا العامة. قلت هذا، فأرسل هو نظرة تتبعتها فوقع نظري على ساعة. كنا نقترب من الواحدة.

- عندما وصلت إلى المقر، استقبلني المحتشدون في غرفة الانتظار بالترحيب والعناق. الآن، أنا واثق بأنهم ساخطون لأني أطيل انتظارهم.

أظهرت فهمي لضيق وقته فيما أنا طامع في واقع الأمر في أن يمدّ هو

وقت اللقاء أو يحدّد موعداً لخلوة أخرى. أما هو فلم يعد محتاجاً إلى الخلوة.

- ابق هنا حتى وقت الغداء. سلّم على أصحابك في المقرّ ثم تغدّ معنا. نحن نتغدى في مكتبي هنا في الثانية والنصف.

عرف صاحبي الذي أطلقت عليه اسم عائد أني موجود في المقرّ الرئاسي، ورصد طريقة استقبال الرئيس لي، واستخلص النتائج من الأوامر التي صدرت بشأني. وتوقع عائد بالطبع أن أجيء إلى حجرة مكتبه؛ ألسنا صاحبين منذ زمن طويل، ألم يعرض هو عليّ أن يحلّ مشكلتي. بل لعلّ عائد توقّع أن أجيء إليه لأستشيره قبل أن ألتقي الرئيس. غير أني تنقّلت من حجرة إلى أخرى على مدى ساعة ولم آت إلى حجرة عائد، وذلك، ببساطة، لأني نسيت أن له مكتباً في هذا المبنى. وإذا لم أكن قد زرت صاحبي هذا خلال الأسبوعين اللذين قضيتهما في غزة قبل التقائي الرئيس فلأني، أنا الذي سمعت الكثير مما يسوء عن سلوكه، شئت أن أتيقن مما سمعت. ولما لم أزره وأنا في المقرّ، فقد ظنّ المقروص بسوء السمعة أني أتجنبه حرصاً على سمعتي. والحقيقة أن صاحبي استخلص ما هو منطقيّ، لكن استخلاصه لم يكن صائباً. فأنا لم أقرر مقاطعته، ولست ممن يقاطعون إنساناً بسبب سوء السمعة وحده. وحين تقابلنا في أحد ممرّات المقرّ، أزعجني أن أرى صاحبي القديم متحفظاً. وجاء دوري لأسيء الفهم. فقد تصورت أن صاحبي ساخط لأني رفضت وساطته هو وقبلت وساطة د. أسعد. واستكثرت أن يتصور عائد أن يكون هو عندي أو عند أيّما أحد أهمّ من أسعد عبد الرحمن.

- مرحبا بانضمامك إلينا!

بدت لي النبرة فاترة. وتهيأ لي أن عائد لم يقل العبارة إلا ليذكرني بما ظننت أنه مستاء منه. فأمعنت في سوء الفهم.

- هل يريحك حقا أن أنضم إليكم، وهل يرتاح آخرون لو عرفوا أني سأعمل هنا.

وبهذا، بلغ سوء الفهم ذروته على الجانبين.

- لا أحد يؤذيه وجودك بيننا. وجودك ليس هو المشكلة، إنه لسانك، وهي عينك النقّادة، فأيّ فرق بين أن تكون في هذا المكان أو غيره.

موقع عائد بجانب ياسر عرفات وفّر له نفوذاً رأى كثيرون أنه لا يستحقه وجعله مطلعاً على أسرار قد يجهلها أقرب المقربين ومنهمكا في أعمال يحسده عليها الآخرون. لم تكن لموقع عائد شهرة واسعة، لكن الشهرة جاءته لكثرة ما تناولته الألسنة، هو الذي أمعن في ما يراه متناولوا سيرته فساداً. والحقيقة أن عائد إن استحق بعض ما رُمي به فقد رُمي أيضاً بما لا يستحق. وهذا هو ما استقصيته بنفسي إلى أن تيقّنت منه. فقد كان هذا الرجل كلب صيد حقق مكانته عند سيّده لأنه أكثر الكلاب أمانة مع هذا السيد ووفاء له. تعرفون جميعكم كم هم كثيرون كلاب صيد ياسر عرفات. وكثيرون منكم يعرفون أن هؤلاء يلتقطون الطرائد التي يُطلقهم

سيّدهم وراءها فيستأثرون ببعضها لأنفسهم من وراء ظهره. أما عائد فقد تميّز بأنه يرجع إلى سيّده بالطرائد كلها ولا يخونه. ولأن عرفات صيّاد متمرّس فهو يمنح كلبه الأمين جزء من الطريدة. وإذا اشتملت سيرة عائد على ما يزكم الأنوف، فلأن الطرائد التي يوكل أمرها إليه ليست كلها نظيفة. ونقيصة عائد، أو فساده إن شئتم، كامنان في حماسه للجري وراء أي طريدة حتى لو كانت شديدة القذارة. وقد هيئ لي أن عائد والفاسدين الآخرين اللائذين بالمقرّ الرئاسي يخشون أن أحلّ في المقرّ وأرصد مفاسدهم.

- خشيتهم لا موجب لها، فأنا لن أعمل هنا.

والتقط عائد الذي لا يُعِدّ في الأغبياء مغزى قولي.

- أعرف أنهم في غزّة قالوا لك إني من رموز الفساد، أخوك رباح المعارض المزمن، ولسانه...
- لست ممن يؤخذون بالأقوال. ورباح لم يجيء على ذكرك، وهو مثلي يركّز نظره على رأس الحصان وليس على الذيل. أما أن تكون أو أن لا تكون في الفاسدين، فأنت أدرى بنفسك.

قلت هذا منساقا مع المزاج الذي أنشأه سوء الفهم. إلا أن عائد استخلص ما طاب له، فراق مزاجه، وفرد على وجهه ابتسامة، وأحاط وسطي بذراعه في حركة متوددة واقتادني إلى حجرة مكتبه، وأغلق الباب

وراءنا.

- لماذا لا نتحدث بصراحة.

في تلك اللحظة، فيها بالذات، إزاء جرس الصوت الذي بدا لي مماثلا والدعوة إلى الصراحة التي بدت كأنها دعوة إلى المساومة، انبثق من داخلي كل ما تجمّع ضدّ هذا الصاحب العتيق وأحسست بأن صداقتنا تغور. هل راودني مثل هذا الإحساس من قبل؟ أكذب إن زعمت أني انتبهت إلى أي تبدّل في مشاعري تجاه عائد قبل هذا اللقاء. سمعت الكثير عن مفاسد عائد، لكني سمعت مثله أو أسوأ منه عن آخرين، وكان من هؤلاء أصدقاء لي أغوتهم الفرص المتاحة فأوغلوا في الفساد. ولم آذن لنفسي بأن ألبس جلباب الواعظ أو أدّعي بأنّي حامل راية مكارم الأخلاق. أما بعد أن عاينت على أرض الواقع الصلة بين السياسة الخاطئة والفساد، فقد راحت رؤيتي للمسألة تتبدل.

- في عمّان، عندما التقينا، كيف أقول، تحدّثنا بغير تحفّظ. حتى سخطك على اقتراحي بدا لي دليل مودة. هنا، بعد عودتك، لا تخطئ فهمي، فأنا سعيد بعودتك، يبدو لي أن شيئا ما تبدل.

- تبدّلت أشياء، وتبدل ناس. وإن أردت الحق فأنا أسأل نفسي: هل تستمر الصداقة بعد أن تفترق الدروب؟ أسأل، وسأظل أسأل إلى أن أجد الجواب. لا أتحدث عن الاختلاف في السياسة، أتحدث عن تباين القيم، تباين المعايير، وتباين أوجه السلوك.

- هل استنتج من هذا...

- لا تستنتج أي شيء! أنا لا أنوي أن أقيم الدين في مالطا أو أيّ مكان

آخر. سأظل أكتب، غير أني لن أصير واعظاً. سأصف الواقع لكني لن أشهر أيّ رسالة. ألا تظن أن لديّ أنا الآخر ما يجعلني أتبدّل.

امتد حوارنا في هذا النحو. وبقي عائد في دائرة عدم اليقين بشأن موقفي منه. ولم أجد ما يلزمني جلاء هذا الموقف. فحاول هو اختراق الدائرة.

- ما دمت ستبقى هنا، فأنت بحاجة إلى مساعدة، وأنا صديقك أو قل إني أحدثك بدافع الصداقة وحده، ثم إنك كاتب لك علينا حقوق حتى لو نحّيت دافع الصداقة. وأنا في الخدمة، يُسعدني أن أخدمك.

- . . .

- خذ كلامي كما هو ولا تغلط في فهمه! ستحتاج مثلا إلى شقّة. ارتفعت أجور السكن ومن الأفضل أن تكون لك شقة، وأنا أعرف أنك لن تطلبها من أحد، لكن بإمكانك أن تعتمد علي. ستحتاج إلى سيارة، عندي أكثر من واحدة، وسأحصل قريباً على وكالة سيارات. . .

أخطأ عائد، أخطأ الفهم. قلت إني لن أصير واعظاً، ولكني لم أقل إني أجيز الفساد. وقد أخطأ عائد فهم قولي. من يَلِغ في الفساد يظنّ أن الآخرين جميعهم قابلون للعطب. لا يفسد إنسان ويظلّ قادراً على إتيان الصواب.

- وبتصرفك مكاتب مكيّفة الهواء أحتاج إلى واحد منها، وشاليهات على البحر، ومطاعم، وربما فنادق، وقد تؤسس شركة طيران. لماذا لا توقف مسلسل العروض.

- كما تشاء.

قالها عائد غير مقتنع، في ما بدا، بأن رفضي باتّ، وأضاف بعد لحظة صمت:

- عرض واحد أرجو أن لا ترفضه، عدني بأن تجيء إلي أنا إن احتجت لشيء، حتى لو صدّقت أني رمز فساد!

لحظتها، وجدتني مدفوعا دفعا إلى إيضاح ما تجنبت إيضاحه في الحوارات التي انهمكت فيها منذ حلولي في غزة عن الفساد والفاسدين. الصالحون هنا والفاسدون، جميعهم، ضحايا. الفساد القائم هنا هو فساد خندق الضحايا حين تتجمع فيه دواعي اليأس، فساد ما قبل نفاد الفرص، وهو لهذا فساد شره ومتعجل. وهذا الفساد على ما يجلبه من منافع للوالغين فيه لن يخرج هؤلاء من خندق الضحايا. فما يُبقي الضحايا في الخندق هو الاحتلال، هو تفوّق القوة المسلّطة على الجميع، وهو البطش الذي يصبّه المحتلون، وهذه عوامل لم تتبدل. يقينا أني لا أجيز أي فساد غير أني لا أركز على الجزء وأغفل الكل. إني أرفض أن أقسر بوصلتي على التوجّه في الاتجاه الذي تعمى فيه الرؤية. الرأس أم الذيل، هذه هي المسألة على الدّوام. الاحتلال هو أساس الداء وهو مثير المواجع جميعها، الفساد وغيره، هذا حين يهتمّ التحليل بلباب الأمور. أليس الاحتلال هو راعي الفساد والفاسدين. وما دامت كل شؤون الخندق هي في يد المحتل، الوصول إليه والخروج منه والحركة داخله، الاستيراد والتصدير، الطعام والشراب، والدواء والكساء، فكيف يفسد أي من الضحايا إذا لم يسهّل المحتل فساده. أما الفساد الذي لم يصنعه المحتلّ فهو فساد السياسة، وهو الذي يسهّل مهمة المحتل في تعميم أي فساد. لن تنصلح

الأحوال ما لم تنصلح السياسة ولن يرحل المحتلّ.

- تحاصرك ألسنة الناس وتخزك التهم. أما أنا فلي اهتمامات أخرى أنشغل بها.

وجاء من يدعونا إلى المائدة فانقطع الحديث. وعندما بلغنا الباب الذي سبقنا إليه آخرون فتحه ضابط النجمات الثلاث: «الأخ فيصل أولاً». فدخلت ودخل عائد والآخرون بعدي. كان أبو عمار قد اتخذ مقعده على رأس المائدة وقادني ضابط المراسم نحوه وسحب المقعد الذي على يمينه ودعاني إلى الجلوس، ثم وزّع الآخرين على بقية المقاعد.

حديثو السلطة مثل حديثي النعمة يبالغون في إتباع اللياقات لكنهم لا يتقنون ممارستها. فكّرت بهذا وأنا أرى كيف تزاحم المدعوّون على شغل المقاعد الأقرب إلى مقعد عرفات متفلّتين من إرشادات ضابط المراسم. حديثو سلطة كانوا، بل أدعياء سلطة، وقد بدوا لي مثل من يؤدون أدواراً في مشهد تمثيلي لم يدربوا تدريباً كافيا على أدائه. ولو أن مزاجي لم يكن قد راق في صورة استثنائية لتعذّر عليّ أن أحبس ضيقي. أما وقد راق المزاج بعد أن اجتزت امتحانين في وقت قصير، فقد رحت أرصد ما هو طريف في السلوك المصطنع وأتمتع بقدرتي على أن أسلك سلوكاً مختلفاً. وكما اشتطّوا هم في التكلّف، أمعنت أنا في التبسّط؛ نبرتهم المتوقرة في حضرة سيادة الرئيس أو فخامة الرئيس طغت عليها نبرتي المستريحة وأنا أخاطبه بكنيته، أبو عمار؛ تأمينهم على أي قول يفوه به هو وتطييبهم أي رأي يصدر عنه قابلهما حرصي على إبراز رأيي

المعارض؛ التحفظ الذي قيّد حركاتهم والتحسّب الذي رسم على الوجوه ابتسامات وتعابير محسوبة بحساب مزاج الرئيس أو محاها قابلتهما طلاقة حركتي وعفوية التعبير؛ والتزلّف، والنفاق، وما إلى ذلك مما تعرفون أني لا أمارسه. ولما لاحظ هؤلاء أن فخامة الرئيس يصغي إلى الآراء المعارضة دون أن يسخط، فقد بدا عليهم الارتباك، وصمت بعضهم فيما راح بعضهم ينافقني أنا الآخر ويصطنع الرضى. وبهذا أبلغني المشهد ذروة المتعة.

بسطت آرائي في السياسة المتبعة. قلت ما كنت أنوي قوله لو أن ياسر عرفات مدّ وقت خلوتنا أو منحني خلوة جديدة. وبسطت انتقاداتي كلّها ومخاوفي. ألم يشأ القائد أن يختبرني، فلأستثمر سعة صدره وليعرفْ، إذن، أن لي الحق في اختبار قدرته على احتمال الانتقاد. وإذا صبر الذي أجاز لي أن أنتقد على جهري بآرائي أمام هذا الحشد الذي يغلب فيه المنافقون فلن يجرؤ أحد على إيذائي إن جهرت بها في أي مكان.

- اعتراضاتك سمعتها وأنت تعرف رهاننا. إن اتضح أننا على صواب وهو ما أرجو أن يتضح قريبا فالربح للجميع. وإن فشل الرهان فأنا المسؤول. حطّوا المسؤولية عليّ. قولوا عني ما تشاؤون، العنوني وقولوا خائن إن كان هذا ينفعكم وبدّلوا السياسة واتبعوا طريقاً آخر!

أوجز القائد رده، ثم نهض. كان قد بدأ ينطفي في نهاية فترة عمله النهاري الطويلة وقد حان وقت قيلولته، وخصّني بتحية وداع، ثم بارحنا بخطوات متأنية يحفّ به مرافقوه.

٥

- طال اللقاء، بَشِّر!

بهذا هتف رباح الذي كان في انتظاري.

- لا لي ولا عليّ. أو لي وعليّ إن شئت. خمسون بخمسين. أعطيت وأخذت. بعت واشتريت. فعلت ما يفعله غيري.

استقصى رباح التفاصيل، واحتار في الحكم عليّ: أن يتشبث أخوه الذي طالما سمع وهو بعيد عنه أنه من ناس عرفات بموقفه المعارض، أن يقاوم المغريات، فهذا مما حسبه لي.

- لكن ما معنى أن تظل معارضا وتتعهد عدم الانهماك في نشاط المعارضة، هل تشرح لي؟

- ليس الأمر كما تصورته. لعل وصفي الهازل لما جرى هو الذي جعلك تسيء الفهم. سأواصل بثّ آرائي، هذا هو الأمر في جوهره حين تكون كاتباً. معارض يعزف على قلمه، هذا هو أنا. أنا لا أعزف على سيف. عازف منفرد؟ أي بأس في هذا ما دام العزف للجمهور. كل كاتب، حتى

أمتن الكتاب التزاماً بالشأن العام، هو، بمعنى ما، عازف منفرد. المهم ألا يصير العزف نشازاً أو تستراً على أخطاء وأن لا يجري في الحجرات المغلقة وحدها.

أقلقني تحفظ رباح دون شك. لماذا لا يُدرك رباح أن الكتابة هي المجال الوحيد الذي لا أتطلع إلى أي دور لي خارجه. ومع مَنْ مِنْ معارضي عرفات يريد لي رباح أن أنشط. مع الذين ينتضون سيوف الرفض القومي التي عتقت أم الذين ينتضون سيوف الأصولية الدينية الأعتق، مع الذين يشهّرون بعرفات، الفساد، والتفرّد، والديكتاتورية، فيما هم أنفسهم مفتونون بهذا الديكتاتور أو ذاك من حكام العرب ووالغون في مفاسده.

أسعد الجميع كانت أمي. استخلصت أمي أني سأظفر بحق البقاء معها وليس مهماً بعد هذا أن يكون لي في السلطة منصب أو لا يكون، أن أعارض بقلم أو سيف، أن أصاحب ياسر عرفات أو أصاحب خصومه أو أن أخاصم الجميع.

- هل عرفت تلك الأجنبية حين تزوجتها أنك ستجيء بها في يوم من الأيام إلى البلاء الذي نحن فيه.

قالت أمي هذا بعد أن سمعتني أحدث زوجتي على الهاتف دون أن تفهم هي الحديث. ولم أشأ أن أزيد هواجس الأم. فقد استمعت زوجتي إلى روايتي واستخلاصي وعرفت ما لم أبح به لغيرها من هواجسي فقررت أن ترجئ طلب التقاعد إلى أن استقرّ أنا على رأي بشأن وضعي

الجديد.

أما لمى الإبنة الراغبة بالطبع في أن أبقى بجانبها فقد عرفت ما يدور في خاطري بالضبط. فأنا أعتزم أن لا أظل بعيداً عن ربعي، هؤلاء الذين انتقل مركز ثقلهم إلى الوطن بعد أن كان في المنفى، ولن أظل منصرفاً إلى التأليف وحده، كما كنت منذ تفرغت للكتابة. سأنهمك في السياسة بقلمي، سأواصل التأليف لكني سأحرص على العودة في الوقت ذاته إلى متابعة اليومي ونشر رأيي في ما يجري. الكتابة، وليس غير الكتابة، لكن مع الإنهماك في ما ينشغل به الربع من الهموم العامة. أما ما عدا ذلك، ما ينهمك كثيرون في السعي إلى الظفر به، فسأظل بمنأى عنه. ولا بدّ من أنشئ لنفسي الوضع الجديد الذي يلبّي رغبتي في الانهماك في شؤونٍ والنأي عن أخرى. وهذا هو ما أفكر فيه.

- لك عندي بشارات، وليس بشارة واحدة.

وعندما بلغته، ناولني د. رمزي أوراقاً ممهورة بالتواقيع والأختام، ناولني إياها ورقة ورقة ومع كل ورقة شرح. فحصلت على قرار تسميتي مستشاراً دون تحديد مسؤولية بعينها، تماما كما طلبت، وقرار صرف رواتبي الموقوفة على أقساط جعلها هذا القرار أربعة، وإذن الإقامة أو الرقم الذي يسمّونه الوطني الذي تمنحه إسرائيل.

وبحصولي على إذن الإقامة، صار عليّ أن أغادر البلاد من المعبر الذي جئت منه بإذن الزيارة لأعود بعد ذلك وفق إجراءات جديدة بعد إتمام ما

يسمّونه التنسيق، أي بعد أن تطلب السلطة الفلسطينية من المحتلّ موعداً لعودتي وتأتي موافقة المحتلّ عليه. إنه تعقيد قد يبدو لمن لا يعرف الاحتلال الإسرائيلي أن لا لزوم له. لكن هذا هو بعض ما تفرضه سطوة المحتلّ، ولا مناص من الانصياع.

كان قد بقي من الشهر الذي أباحه إذن الزيارة عشرة أيّام. وكنت توّاقاً بالطبع لزيارة الضفّة. وفكّرت في قضاء الأيام الباقية في رام الله التي أقام فيها عدد كبير من أصحابي العائدين. وكانت زيارة الضفّة تقتضي أن أحصل على إذن من المحتلّ. فتوجهت إلى الموكّلين بطلب الإذن فطلبوه لي. وفي اليوم التالي، جاء الرد الإسرائيلي: ممنوع لأسباب أمنية. فبدا الأمر بالنسبة لي أقرب إلى نكتة سمجة.

- أسباب أمنية وأنا كاتب لم يستخدم في حياته غير سلاح القلم؟

- حين يتذرّعون بالأسباب الأمنية، أنت تعرف الإسرائيليين، لا يقدّمون إيضاحات. سنعترض، نملك حسب الاتفاق حق الاعتراض، لكنّه ليس الحق الوحيد الذي نملكه ولا نستفيد منه.

هاشم محاميد، العضو العربي في الكنيست الإسرائيلي الذي كانت علاقتي به قد توثقت في الخارج، تدخّل، فوجّه لي دعوة رسمية لزيارته، وأرسل نسخة من الدّعوة إلى الجهة الإسرائيلية المعنية، وأظن أنها كانت مكتب رئيس الحكومة اسحق رابين، فجاء الرد ذاته: الرفض لأسباب أمنية. يوسي ساريد زعيم ميرتس الإسرائيلية الذي كان آنذاك وزيراً في الحكومة ندبه أحدٌ ما للتدخل، يائيل دايان عضوة الكنيست تدخلت، لطيف دوري الموكّل بعلاقات ميرتس الخارجية، وإسرائيليون آخرون،

عرب ويهود، تدخلوا، ولا فائدة. وحين استقصى يوسي ساريد السبب، قيل له عني إنني استفزازيّ. وهذا يعني، لو أمكن أن نترجم لغة المتجبرين إلى لغة البشر العاديين، أني أكتب ما يستفزّ محتلّي وطني وإني لا أحبهم. وقلت للطيف دوري الذي نقل إليّ على الهاتف ما قالته الجهات الأمنية لرئيسه ساريد: »هل تتذكر، أنت الإسرائيلي الذي ما زال بالإمكان أن نتبادل معه حديثاً دون مضاضة، أن إسرائيل فعلت ولو شيئاً واحداً يجعلنا لا نكرهها، شيئا واحدا فقط«؟

الموكّل بالطلب، وقد خاب مسعاه حتى بعد الاعتراض، وجّهني إلى ما ينبغي عمله، إلى ما يقترحه هو معتمداً على خبرته أو قولوا: معاناته مع الإسرائيليين.

- عندما ترجع من الأردن بإذن الإقامة، سيكون عليك في معبر اللنبي أن تملأ استمارات، فاجعل مكان إقامتك أريحا وليس غزّة، وبهذا يصير لك الحق في زيارة أي مكان في الضفة، رام الله وغيرها. وفي هذه الأثناء أواصل أنا السعي لرفع اسمك من قائمة المنع الأمني وأُحصّل لك إذن زيارة لغزّة، وإذا. . .

بدا أن الشرح سيطول فأوقفته مكتفيا بالاقتراح الذي قبلته من الرجل الخبير.

وقبل أن أبرح غزة، في مساء الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٥، فاجأنا مشهد مصرع اسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل على يد قاتله الإسرائيلي. وعندما سألتني عميرة هاس مراسلة هآرتس الإسرائيلية التي تعرّفت عليها في منزل رباح عن أول رد فعلي إزاء الحادث، قلت لها إني

خشيت العواقب، خشيت ما ستفعله إسرائيل بالفلسطينيين. وشرحت سبب خشيتي: تعاقب إسرائيل الشعب الفلسطيني إن قتل فلسطيني إسرائيليا، وإن قتل إسرائيلي فلسطينياً، وإن قتل إسرائيلي إسرائيلياً، وإن لم يقتل أحد أحداً. أمّا عمّا إذا كنت قد ابتهجت لمقتل صاحب سياسة تكسير العظام، فقد قلت إني أنتمي لثقافة لا ترى في الموت ما يبهج، لكن من المؤكد عليه أني لم أحزن.

و في الأيّام التي سبقت مغادرتي، واصلت تقصّي الأحوال فيما كان الإغلاق الذي فرضته إسرائيل على الفلسطينيين بسبب مقتل رابين يحتجزني. ومع وجع الإغلاق، اشتدت الأوجاع الأخرى التي يثيرها ما أعانيه، الفساد، والفوضى، والتهافت على الدنايا، والاستغراق في النمائم الصغيرة. واتصلت بمؤسسة شومان وأبلغت إليهم أني سأحلّ بعمان فور انتهاء الإغلاق، وطلبت أن يتيحوا لي فرصة التحدّث إلى جمهورهم. واقترحت العنوان: »راجع إلى غزّة راجع من غزّة« .

وكان هذا هو ما لخّص بلبالي بشأن القرار الحاسم، أبقى أو لا أبقى، البلبال الذي نشأ بعد أن عاينت ما عاينت، هل أواصل غربتي خارج الوطن أو أنقلها إليه، وهل بإمكاني أن أحتمل هذا الوضع الذي أنشأه أوسلو. وفي طيّات البلبال، تمدّد السؤال الكبير: هل هذا الذي وقعت عليه وأنا أقترب من الشيخوخة هو الوطن الذي تنتهي فيه غربة امتدت منذ الطفولة؟ وما هو الوطن؟ وكيف سأستقرّ ما دمت لم أشعر بأن ما عدت إليه هو الوطن الذي طالما حننت إلى العودة إليه، وما الذي سيعيدني إلى المسمية والوطن الجميل الذي أنشأته في الروح؟ لا ينبغي أن يدهشكم

افتقاري أنا الكاتب إلى اليقين. وهل يدهشكم أن يعجز فاقد البصر عن التيقن من ألوان الأشياء، حتى لو وصفها له أبرع المتحدثين.

وفيما أنا منصرف لإعداد حقيبتي من أجل التوجه إلى عمّان، حطّ في جعبة الأوجاع أوجع نبأ.

- عرفت هذا قبل أيام قليلة فقط، وكتمته عنك حتى لا أزيد أوجاعك، أما وأنك مسافر فلا بدّ من أن تعرف: أمّنا، كيف أقول، إنه الكبد وإنذاره قصير الأجل، فلا تـُطل غيبتك هذه المرّة!

انشغلت بما انهمكت فيه منذ حللت في غزّة ونسيت قلقي الأول على صحّة أمي. رأيت هزال جسد أمي فنسبته إلى ما عانت طيلة حياتها، لاحظت كلال حركتها فنسبته إلى تقدم السنّ، انتبهت إلى أن نومها قلق فلم يخطر ببالي أن آلام الداء هي التي تحرمها النوم وهي لم تتحدّث عن أي آلام، لفتني شحوب وجهها فنسبته إلى شرهها في التدخين، هي التي تحرق أربعين سيجارة على الأقل كلّ يوم، تواترت الإغماءات، فنسبتها إلى أسباب طارئة. وها هو ذا النبأ يدهمني دفعة واحدة: سرطان الكبد، فيا قلبي احتمل وتجلّد إن استطعت!

لم أكن قادراً على إرجاء السفر، فالمحتلّ صارم في إلزامنا الإجراءات التي يرسمها لحركتنا، وهذه لا ترتسم على خارطة أي عاطفة. وفي عمّان، بقيت إلى أن تمّ تنسيق عودتي ووافق الجانب الإسرائيلي على موعدها. وفي غضون ذلك، توجب أن أجيب على سيول الأسئلة.

وألقيت حديثي الموعود في مؤسسة شومان فظهر فيه سخطي على السلطة الفلسطينية والمعارضة كليهما. وواجهت في المؤسسة جمهوراً سخط بعضه لأنه رأى أني لم أهاجم اتفاق أوسلو والسلطة بما فيه الكفاية، وسخط بعضه لأني هاجمتهما، ولم يتقبل كلامي بالرضى إلا قليلون. وكان ملخص ما قلته أنّ مهمة إصلاح الوضع الذي وصفته أثقل من أن تنجزها السلطة أو المعارضة حتى لو لم تفسدا، وقد تعجز الجهتان عن إنجازها حتى لو اتّحدتا.

و في أحد الأصباح، بكّرت في مغادرة عمّان. ستّ ساعات أخرى، متاعب ومهانات على المعبر وما إلى ذلك مما كان متوقعا فخفّ وقعه. أريحا ووقفة في منزل الكاتب الصحافي الذي توقف عن الكتابة أحمد نجم، المنزل الذي انتقاه أحمد منذ عاد إلى مهوى فؤاده من بين أقرب المنازل في أريحا إلى استراحة الركاب فتحول إلى استراحة لعائدين كثيرين من أصحابه ينهكهم عناء المعبر فيستردّون في هذا المنزل عافيتهم. ساعتان مع الصديق أحمد وزوجته والأولاد الذين انتعشت أرواحهم بوجودهم في البيئة التي نشأوا على الحلم بالعودة إليها، وجولة مع أحمد للتعرف على معالم البلد وأطلال المخيمات. ثم ساعتان للطريق بين أريحا ورام الله، أو قولوا: أقلّ من ساعة لهذا الطريق وبقية الوقت للحواجز العسكرية الثابتة أو الطيارة التي تعترض رحلة المسافر بين المدينتين. وفي رام الله التي بلغتها مع نهاية النهار، حللت في منزل صديق العمر سميح شبيب. وفي المنزل الذي له عندي مكانة منزلي ومع الأسرة التي لها مكانة أسرتي، قضيت ليلتي الأولى في الضفّة.

كان أول ما فعلته فور حلولي في المنزل الحفيّ أني هتفت لغزّة. وعندما قال رباح الذي سألته عن أمّنا: «خذ كلمها!»، «ن أدركت أن أخي هذا، المحزون مثلي، يتجنب أن يحدّثني عن مرضها وهي بجانبه فهم، إذن، ما زالوا يخفون عنها حقيقة دائها. وجاء صوت أمي. كان الصوت قويا، ولو لم أكن أعرف ما أعرفه لما هجست بأي سوء. غير أني كنت أعرف. وما كان أقسى التجلّد الذي فرضته على نفسي كي لا يتسرب أساي إلى صوتي!.

قلت للتي تساءلت عن موعد قدومي إني سأمضي في الضفـّة الأيّام التي أحتاج إليها إلى أن يتمكنوا من الحصول على إذن يبيح لي زيارة غزّة أنا الذي سجّلت نفسي مقيماً في أريحا. وهوّنت الأمر، ثلاثة أيام أو أربعة كما وعدني الموكلون بطلب الإذن.

- لا تتأخر، ارجع إليّ قبل أن أموت.

لم تكن قد عرفت ما ينتظرها، إلا أنها طريقتها في الكلام.

- لا تموتي قبل أن أصل إليك!

قلتها كأني أجاري طريقتها، لكني عنيت ما أقول.

- إذن، عجّل عودتك!

ولكي أصل إليها بأعجل ما يكون، اتصلت بالحاج اسماعيل جبر الذي

كنت قد التقيته أثناء وجودي في عمان وعرض علي المساعدة في أي أمر أحتاج فيه إلى مساعدته. إنه عميد الشرطة الذي يرأس أجهزة الأمن الوطني في الضفـّة ويقيم مكتبه في أريحا. وطلبت من الذي رحّب بمكالمتي أن يتدخل، فتعهّد أن يبذل أقصى جهده، وأظن انه قد فعل. أما النتيجة فحدّدها الرفض الأمني الإسرائيلي. وقد أبلغ الحاج اسماعيل هذه النتيجة إليّ دون أن يكون قد أسقط في يده: «سأواصل السعي»، قال الحاج، «ولديّ ما أحتج به»، مرض الأم سبب إنساني للزيارة يوجب الاتفاق على الجانب الإسرائيلي أن يستجيب له، وهذا هو ما عوّل الحاج عليه.

وفي الصباح الذي لا أنسى أساه، رنّ جرس الهاتف في منزل سميح قبل أن تشرق الشمس وأيقظني رنينه كما أيقظ غيري. وانتهى إليّ في الحجرة التي أنام فيها جَرْسُ صوت سميح الناعس، وهجست بشيء، ومنّيت النفس بأن لا يصدق هاجسي. ولما لم يجيء سميح إليّ فقد حاولت أن أعود إلى النوم، لكن النوم جافاني. فتوجهت إلى المطبخ بنيّة أن أعدّ لنفسي فنجان قهوة. ولم يستوقفني غياب سميح، بل تصورت أنه عاد إلى النوم. وفيما أنا جالس إلى مائدة المطبخ وفنجان القهوة في يدي، فُتح الباب، وظهر سميح وزوجته سعاد ومعهما جارهما في السكن أحمد المجدلاني الذي استقدمه سميح ليستعين به على أداء المهمة القاسية. وتلقيت ما بثته تعابير الوجوه الثلاثة، فلم يبق مجال لمخادعة النفس.

- ماتت أمي؟

فقال أحمد:

- البقية في حياتك.

واحتضنني سميح الذي يعرف أمي ويعزّها، وبكى. وأجهشت سعاد في البكاء

في ليلتها الأخيرة، الليلة الواصلة بين الثالث والعشرين والرابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٥، فيما الرفض الإسرائيلي يبقيني بعيداً عنها، قالت أمي لمساهريها قبل أن تتوجه إلى فراشها إنها تحسّ بأنها لن تشهد الصباح. وفي هذه الليلة كررت أمّي، وهي في السرير ورباح ونورا يحفّان بها وصيّتها القديمة: »في عزائي قدّموا الشربات والحلوى، الحزن لا يلائمني، واطلبوا من كلّ معزيّة أن تزغرد زغرودة وتهاهي، وغنّوا، لا أحب الندب، واجعلوا قبري بجوار الطريق لتؤنسني حركة الناس، لا أحبّ الوحشة!». وقبل أن تهجع هجعتها الأخيرة، انتبهت أمي إلى أصداء غناء، كان لدى بعضهم في الحيّ عرس فكانوا يغنّون: »هل تسمعان، انفتحت أبواب السماء، وهذا هو غناء الملائكة«. وحين جاءت نورا مع الفجر لتتفقد حماتها وجدت الحجرة مضاءة والمريضة صاحية. كان الغناء قد توقف. غير أن التي رأت أبواب السماء مفتوحة كانت ما تزال تصغي. وطلبتْ أمي كأس ماء. وجلبت نورا الكأس، إلا أن التي طلبته لم تعد قادرة على شربه.

فقدت أمي، وقبلها فقدت الوطن الذي في الذاكرة. أمي والوطن،

فما الذي بقي. هل ستسعف هذه البقية من حياة المشرف على الستين الذي أضنى شقاء المنافي روحه وفتكت بجسده الأدواء. وبقايا الوطن الذي مزّقه الغاصبون، البقايا التي خرّبوها، هل من الممكن حقاً استخلاصها من أيديهم، ومن الذي سيستخلصها، هل سيستخلصها هؤلاء الواقعون في مصيدة أوسلو. وهل يمكن إصلاح هؤلاء الذين فتك العناء والشقاء بأجسادهم وأفسد الطمع أرواحهم. أو إن علينا أن ننتظر إلى أن ينشأ الجديد ويبدأ دورة جديدة من دورات الصراع المتعاقبة مع العدو الغاصب. ومتى ينشأ هذا الجديد إن أمكن أن ينشأ، وما هو الوقت اللازم حتى تصير له الغلبة. وإذا انصلح العتيق الفاسد أو نشا الجديد العفيّ، فمتى يمكن وصل بقايا الوطن بعضها ببعض وترميم الخراب.

أمضيت عمري في الحنين إلى أم ووطن أُقصيت عنهما. أدرك بالعقل أن أمي كانت مثل أيّ أم، ولعل مزاياها لم تزد عن مزايا غيرها حتى وإن لم تنقص. لكن الحرمان من الأم طيلة عقود متصلة جعل أمي هي الأعظم والأجمل. والوطن، ربما كان الوطن الذي أقصيت عنه في العام ١٩٤٨ جميلاً حقا ولعله كان عظيماً، لكن أغلب ظني أنه كان مثل أي وطن. إلا أن الحنين الذي ألهبه الحرمان المتصل وغــــذّاه أنشأ في الروح وطناً هو الأعظم والأجمل بين الأوطان. وها أنا ذا قد فقدت الجميلين العظيمين معاً، فماذا بقي لي، الأم لا يمكن تعويضها، فهل تسعف البقية الباقية من العمر والبقايا الباقية من العزائم لبناء وطن واقعي يعوّضني وطن الرّوح الذي فقدته.

قال سميح وهو يتابع ما فثأه الحزن من مراراتي: لا وطن لنا غير هذا

الوطن أياً ما كانت عليه سماته، وقد عدنا إليه ولا بدّ من أن يعود الآخرون، وعقبOne Way Ticket:، بطاقة سفر لاتجاه واحد. وقلت أنا مجارياً أفكار صديقي التي أوافقه عليها: مواصلة البقاء، مقاومة محاولات إفنائنا، وتجميع البقايا، تجميع ما يمكن تجميعه منها، بقايانا وبقايا وطننا، ووصلها بعضها ببعض، وترميمها، وتجميل ما يمكن تجميله.

تجميلنا الوطن الذي أنشأناه في الذاكرة، الوطن الذي أحللناه في أرواحنا، مكّننا من البقاء على خط الحياة إلى اليوم وصاننا من التبدّد، حدث هذا بالرغم من أنه كان وطناً في الخيال. فهل ننكص الآن، هل نيأس وقد صار في اليد شيء واقعي. جمّلنا ما كان حلماً، فلماذا ننكص حين يتوجب تجميل الواقع. أدمنّا الحنين إلى وطن لم يكن هو ما حصلنا عليه، فلماذا لا ننحّي الحنين ونصلح ما صار في أيدينا ونستخلص من أيدي الغاصبين المزيد ونحميه. لماذا لا ننشئ ما لا نحتاج إلى أن نحنّ إليه.

- المريضة التي طلبت لي إذن زيارة غزّة كي أكون بجانبها أعطتك عمرها، فهل أحصل على إذن يمكّنني من اللحاق بجنازتها؟

واساني الحاج اسماعيل، وانتخى.

- ستحصل على الإذن، وإذا رفضوا فسأتصل بسيادة الرئيس الموجود الآن في أوروبا وأطلب تدخله.

هتفت للحاج اسماعيل في أول الصباح. وفي الرابعة بعد الظهر، في الرابعة وليس قبلها، بعد أن فاتني موعد الجنازة، هتف الحاج.

- حصلنا على الإذن، إنه الآن في مكتبي في أريحا، فتعال فوراً لأن عليك أن تعبر إيرز قبل السابعة، الإذن لا يبيح أن تعبر بعدها.

يا له من إذن، ثلاث ساعات فقط لكي أتوجه من رام الله إلى أريحا، ثم من أريحا إلى غزّة، وكل هذا في اليوم الذي قبروا فيه أمي وأنا ممنوع عن المشاركة في جنازتها!

كان خالد الحوراني، قريبي، الرّسام الذي تعرفت عليه في رام الله، قد انتظر رجعة زوجته الحيفاويّة حاملة الجنسية الإسرائيلية من عملها في القدس ثم جاء وإيّاها لمواساتي. وقد أدرك الاثنان ما أدركه الجميع. من المتعذر إتمام المشوارين قبل السابعة إذا استخدمت المواصلات العامّة. وانتخت ميساء الصبية زوجة خالد العائدة لتوّها من عملها الشاق: «سيارتي معي، لوحتها إسرائيلية وسأنقلك بها بأعجل ما نستطيع».

منحني تجبّر المحتلّ إذناً بزيارة غزّة لثلاثة أيام لا تزيد، أولها اليوم الذي كنّا فيه، اليوم الذي انقضى جلّه وستنقضي بقيته على الطريق. وفي الجوّ الغائم حدّ حجب الرؤية وتحت مطر يجعل قيادة السيارة بسرعة مخاطرة، قادت ميساء المجهدة سيارتها كأنها في سباق. وكما يقع لأي مستعجل، فات ميساء أن تنتبه وسط القتام إلى اللوحة الصغيرة غير

المضاءة التي تدلّ على المنعطف المفضي إلى غزة، فوجدنا نفسينا ماضيين على الطريق السريع المفضي إلى بئر السبع، وتبددت عشرون دقيقة ثمينة في الطريق الخطأ. وبهذا، بلغنا أول محرس عند حد معبر إيرز في الساعة السابعة تماما. واستغرق إيقاف السيارة ووصولنا إلى حيث يقف عسكريّ المحرس دقيقة واحدة، فأبى هذا العسكري أن يأذن لنا بالدخول إلى منطقة المعبر: «تأخرتم».

كنت مثقلاً بأحزاني، القديم منها والمستجد. وكنت ذاهلاً. واستوى عندي أن يؤذن لي أو أن لا يؤذن، أن أعبر أو أن لا أعبر، أن أظل واقفاً تحت المطر الذي يغمرني ببلله أو أن أجد ما يقيني البلل. وتابعت بغير تركيز الجدل الصاخب الذي يدور بالعبرية، بين ميساء التي يبللها المطر هي الأخرى والتي تجهد كي لا يفطن العسكري إلى أنها عربية وبين هذا العسكري الذي يحميه محرسه المسقوف ولا يهتمّ بها أو بي. وفي ختام جدل بيّن لي كم هي صلبة قريبتي هذه، قال العسكري شيئاً على هاتفه، وعرفت أن أحداً ما سيأتي إلينا من داخل المعبر. ومضى وقت لم أقسْه، أنا الذاهل، بأي مقياس، ثم أقبل نحونا ضابط قدم في سيارة جيب يسوقها بنفسه. وتفحّص هذا الضابط أوراقي في ضوء مصباح يدوي، واستمع إلى شروح قدمتها ميساء التي أفهمته أنها، هي الإسرائيلية، وقعت عليّ في رام الله وأشفقت على المنكوب بفقد أمه فأوصلتني إليه.

نفعت شروح التي تتحدث العبرية بأتمّ طلاقة وظهر تأثيرها على الفور في حديث الضابط الإسرائيلي الذي كلمني بالإنجليزية.

- ليس من حقك أن تعبر بعد أن تجاوزت الوقت المقرر. لكني سأبذل جهدي. ولا أستطيع أن أعِدَ بشيء، لكني سأحاول.

جلست مستكيناً في سيارة ميساء التي أبت أن ترجع قبل أن تحلّ مشكلتي، وبقيت ذاهلاً. ولم أدر كم انقضى من الوقت حين رجع الضابط ليحدثني عن مشكلة أخرى تعيق دخولي غير مشكلة التأخير. فحصولي على الإذن من أريحا لم يكن سوى خطوة على سياق يوجب أن تنسّق جماعتي أمر وصولي إلى إيرز، أن تتفق مع الجانب الإسرائيلي على موعد الوصول، وهو ما لم تفعله الجماعة. ووعد الضابط بأن يبذل جهده لحلّ هذه المشكلة أيضاً، وقال إنه شرع في الاتصالات وإذا رجع إليّ فلكي يفهمني أن حل المشكلة سوف يستغرق وقتاً قد يطول فلا ينبغي أن أظن أنه نسيني.

وجاء الضابط في نهاية المطاف بالموافقة على عبوري. وأوصلني بسيارته إلى الجانب الفلسطيني حيث استقبلني رجال شرطة كانوا يستدفئون على نار حطب أوقدوه داخل محرسهم. واستدعى هؤلاء بالهاتف سيارة تاكسي، فبلغت الديوان الذي ينعقد فيه مجلس العزاء قرابة التاسعة. وكان الديوان قد خلا إلا من الأقرباء الحميمين. وعلى كتف رباح الذي احتضنني، أفرغت الكثير من توتري.

أما يوم العزاء الثاني فشهدته من أوله. ومنذ الصباح، تدفق ألوف المعزّين على الديوان، واستمر دفقهم متصلاً حتى المساء. ولأقرّ: إني أحبّ من تقاليدنا تقليد المبادرة إلى مواساة المحزونين. ولأقر أيضاً: إن

تواتر قدوم المعزّين خفّف أحزاني وأخرجني من ذهولي.

وفي آخر المساء، بعد اتصالٍ هاتفي مهّد لقدومه، وبعد أن جاء حرّاسه واستطلعوا المكان وانتشروا فيه، جاء ياسر عرفات ومعه سرب من قادة «فتح». وكعادته، تصرف عرفات وكأن الراحلة تخصه شخصيا بمقدار ما تخص ذويها. اعتذر ياسر عرفات، وسط دهشة الذين يلتقونه لأول مرة، عن تأخره، أي عن مجيئه إلى مجلس العزاء في اليوم الثاني وليس الأول، وقال إنه كان خارج البلاد ولم يعلم برحيل الفقيدة إلا قبل ساعات، هو الذي رجع في الصباح. وعاتب عرفات في حضورنا مدير مكتبه العسكري العميد غازي مهنّا بدعوى أنه تأخر في إبلاغ النبأ إليه. وجارى غازي رئيسه في مناورته، فقال إنه تردّد في الإبلاغ لأن الفقيدة تخصّه، هو غازي ابن آل مهنا. وهنا، أبلغ عرفات مناورته الذروة: «الله! هي المرحومة بتخصّك أكثر مما تخصّني!».

كنت أجلس منطوياً على نفسي وأتابع ردود فعل الأقرباء. وكنت ما أزال أفكر في مغزى سلوكه الذي ذكرني بما لا أرتاح إليه. وعندما نهض هو للإنصراف، كنت ما أزال أسير ألمي، ففاتني أن أجاري الذين نهضوا لوداعه وتبعوه وهو يتوجه نحو باب الخروج. وحين صار قرب الباب، والحاج عمر ورباح وبقية الإخوة يحيطون به، فطن هو، أو لفت أحد مرافقيه نظره إلى غيابي، فتساءل بصوت مسموع: «أين فيصل؟»، ولم ينتظر أن أبلغه، أنا الذي توجهت نحوه، بل رجع لملاقاتي فارداً ذراعيه. وكما يحدث في كل مرة، غسلت هذه البادرة ما ساءني، ووجدتني أستجيب لمبادرته بامتنان.

في أيّام العزاء، وعلى الغداء الذي ختم مراسم العزاء، استقبلت كل من أعرفه أو أسمع به أو أتوق إلى معرفته من القاطنين في قطاع غزة، وتلقيت مكالمات من أصحابي في الضفـة، وأصحابي من عرب ٤٨، وتأكّد لديّ الإحساس بأني أنتمي إلى ناس هذه البلاد، صالحهم مثل طالحهم، نزيههم مثل فاسدهم، مخادعهم مثل المستقيم. ولئن رحلت أمي وافتقدت الوطن الذي في الذاكرة، فقد بقي لي ناس ووطن، الناس المحيطين بي والوطن الذي لا وطن لي سواه.

صدر للمؤلف

*** روايات**

١ . المحاصرون .

٢ . بير الشوم .

٣ . سمك اللجة .

*** دراسات**

١ . الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤ .

٢ . العمل العربي المشترك وإسرائيل، الرفض والقبول : ١٩٤٤-١٩٦٨ .

٣ . جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨ .

*** شهادات**

١ . دروب المنفى١ ، الوطن في الذاكرة .

٢ . دروب المنفى٢ ، الصعود إلى الصفر .

٣ . دروب المنفى ٣ ، زمن الأسئلة .

٤ . دروب المنفى ٤ ، الجري إلى الهزيمة .

٥ . دروب المنفى ٥ ، أين بقية الحكاية؟

منشورات شمل
سلسلة الدراسات

العدد رقم ٣

الفلسطينيون في سورية الواقع الديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي.

نبيل السهلي، ١٩٩٦

العدد رقم ٥

الفلسطينيون في مصر وشمال سيناء.

عبد القادر ياسين، ساري حنفي، اوليفييه سانمارتن، ١٩٩٦

العدد رقم ٧

اللاجئون الفلسطينيون في العراق.

لبيب قدسية، ١٩٩٧

العدد رقم ٨

قرارات جامعة الدول العربية الخاصة بإقامة الفلسطينيين في الدول العربية.

عباس شبلاق، ١٩٩٧

العدد رقم ١٠

مراكز المرأة في المخيمات الفلسطينية ومشكلات العمل المجتمعي.

سميح شبيب، ١٩٩٩

العدد رقم ١٢

الاوضاع الاجتماعية والديمغرافية للاجئين في مخيمات الضفة الغربية.

أنور حمام، ١٩٩٩

العدد رقم ١٣

لاجئو الداخل.

محمود سعيد، ١٩٩٩

العدد رقم ١٤

أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

سمير الزبن، ٢٠٠٠

العدد رقم ١٥

اللاجئون الفلسطينيون في لبنان... إلى متى؟

نصري صالح حجاج، ٢٠٠٠

العدد رقم ١٦

العرب في اسرائيل.

عبد الرحمن عبد الغني، انطوان شلحت، محمد ميعاري، ٢٠٠٠

سلسلة الدراسات (بالإنجليزية)

Monographs

No.1

Civil and Citizenship Rights of Palestinian Refugees" & "Palestine Refugees at the Crossroad of 1996 Permanent Status Negotiations.

Abbas Shiblak & Uri Davis, 1995

No.2

Israeli Plans to Resettle the Palestinian Refugees 1948 -1972

Nur Masalha, 1996

No.4

The League of Arab States and Palestinian Refugees' Residency Rights"

"Israeli Resettlement Schemes for Palestinian Refugees in the West Bank & Gaza Strip Since 1967

Norma Masriyeh Hazboum, 1996

No.6

"Reintegration of the Palestinian Returnees"

NichVan-Hear & others, 1996

No. 9

"The Palestinians in Egypt and North Sinia"

Abdul-Kader Yassin , Sari Hanafi & Saint-Martin, 1995

No.11

"League of Arab States Resolutions on Palestinian Refugees' Residency Rights in Host Arab States"

Abbas Shiblak, 1998

الكتب

النازحون الفلسطينيون ومفاوضات السلام

تيسير عمرو وآخرون، ١٩٩٥

قضية اللاجئين والمفاوضات

جويل بيترز وآخرون، ١٩٩٩

الشتات الفلسطيني: هجرة ام تهجير

شريف كناعنة، ٢٠٠٠

الكتب (بالإنجليزية)

Books

Still on Vacation! The Eviction of the Palestinians in 1948
Sharif Kanaana, 2000
Palestinian Refugee Camps in the West Bank: Attitudes Towards Repatriation and Integration
Najeh Jarrar, 2003

سلسلة التاريخ الشفوي

(١) الأرض في ذاكرة الفلسطينيين، إعتماداً على التاريخ الشفوي في مخيم جنين.

عبد الفتاح القلقيلي، ٢٠٠٤

(٢) دروب المنفى (١)، الوطن في الذاكرة.

فيصل حوراني، طبعة أولى ١٩٩٤، طبعة ثانية ٢٠٠٤

(٣) الحنين، حكاية عودة.

فيصل حوراني، ٢٠٠٤

اصدارات مؤسسة الدراسات المقدسية

٢٠٠١-٢٠٠٤

- القدس، دراسات في تاريخ المدينة تحرير عصام نصار، سليم تماري، ٢٠٠٤
- اسرائيل، دليل عام، تحرير كميل منصور، ٢٠٠٤.
- يوميات خليل السكاكيني، الكتاب الأول والثاني (بالاشتراك مع مركز خليل سكاكيني الثقافي)، تحرير أكرم مسلم، ٢٠٠٣-٢٠٠٤.
- القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية ١٩١٨-١٩٤٨، تحرير سليم تماري وعصام نصار، ٢٠٠٤
- خليل نخلة، اسطورة التنمية في فلسطين الدعم السياسي والمراوغة المستديمة (بالاشتراك مع مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية)، ٢٠٠٤.
- القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية ١٩٠٤-١٩١٧، تحرير سليم تماري وعصام نصار، ٢٠٠٣
- نظمي الجعبة وخلدون بشارة، رام الله عمارة وتاريخ (بالاشتراك مع مركز المعمار الشعبي رواق)، ٢٠٠٢.
- القدس ١٩٤٨، الأحياء العربية ومصيرها في الحرب، تحرير سليم تماري، ٢٠٠١.
- ديالا خصاونة، بيوت فلسطين (بالاشتراك مع مركز المعمار الشعبي رواق). ٢٠٠١
- يزيد صايغ- الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٩-١٩٩٣ الكفاح المسلح والبحث عن الدولة، ٢٠٠٢ .

دوريات

- مجلة الدراسات الفلسطينية .
- حوليات القدس .
- Jerusalem Quarterly File.

« هل علي أن أروي لكم تفاصيل رحلتي إلى أرض الوطن، هجرتي الأخيرة التي تطلعت إلى أن أختم بها مسلسل الهجرات المتعاقبة. تعرفون دون شك كيف يعامل الإسرائيليون الفلسطينيين، كيف تستولد العنصرية القبيحة سلوكها القبيح. فإن تصورتم أني حظيت بمعاملة مختلفة لأني ضيف القيادة التي عقدت الصلح مع إسرائيل أو لأن لي المكانة التي تنسبونها أنتم إليّ أو لأن آثار الدّاء الذي يفتك بعامودي الفقري ظاهرة للعيان، وإن تصورتم أن وجعي إزاء معاينة التطبيق الفعلي للاتفاق كان أخفّ من أوجاع غيري ما دمت قد عارضت هذا الاتفاق مسبقاً ولم أعلل نفسي بأي أوهام، إن تصورتم أي شيء من هذا القبيل أو ذاك، فكفّوا من فضلكم عن التصوّر إلى أن تعرفوا ما الذي جرى! ».

ما جرى سيعرفه القارئ في هذا الكتاب. و باللغة التي امتزج فيها بلاغة الإيجاز و سلاسة السرد و التصوير المتقن لأدق خلجات النفس، سيتابع القارئ بحث فيصل حوراني عن وطن روحه، هذا الذي جمّله وهو في الغربة ولم يقع عليه حين عاد.

الناشر



